د. عصمت سيف الدولة

مذكرات قرية

(١)

قال الراوى :

ياسادة ياكرام، صلوا على خير الأنام ،

لا يحلو الكلام إلا بذكرالنبي عليه الصلاة والسلام..

(٢)

هذه مذكرات قرية أرويها، لا أضيف إليها واقعة ولا أخفيها . منها ما رواه المؤرخون ومنها ما تحدث به المعاصرون، وكنت على أكثرها شهيدا فحفظته الذاكرة والذاكرة- يا سادة يا كرام- كالبئر الغائرة أكثر ما يبقى فيها ما ألقى أولا من قديم الذكريات. أما ما يضاف إليه وقد امتلأت بنفايات الفكر أو الحس فإن لم ينكر لا يذكر كأن لم يحدث بالأمس . فما أرويه لكم هو هو كما كان محفوظا فى الذاكرة بعد تدقيقه وتوثيقه بما حفظته الذاكرة الجمعية لجيلين من الاحياء، لايعدو حظى منه ما تفرضه أصول الصناعة فى فن الصياغة وإعادة توزيع أسماء الاماكن والرجال والنساء ..

ولقد كنت أتلقى من القرية حكايتها حين لم أكن غير جزء من وجود القرية ذاتها. بعده زاحمت القرية فى روايتها حين لم تعد القرية إلا جزءا من وجودى ذاته . غادرتها إلى "البندر" حيث المدرسة الابتدائية فلم أكن لألتقى بالقرية إلا يوما من كل سبعة أيام ، ثم إلى المدينة حيث المدرسة الثانوية فلم أكن لألتقى بها إلا شهرين كل عام . ثم العاصمة حيث الجامعة ولم أزل، ففرقت بيننا الاعوام إلا فترات قصيرة متفرقة ، ولقد تلقيت من كل مجتمع لقيته حكايته فاجتمع لى منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة، إلا أنى لا أريد . فقد تعلمت من علم النفس وعلمائه أن المذكرات الشخصية أو السير الذاتية لا يمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين .

ذلك لأنها ، كما قد يعرف أصحابها من أنفسهم، استجابة لغريزة انسانية مسيطرة : النزوع إلى البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا على الخلود. أنها ذات الغريزة التى تولد فى الانسان نوازع عاطفية غير عقلانية . يحب أولاده أكثر من ذاته ولو كانوا مارقين، ويحب أحفاده أكثر من أولاده ولو كانوا غير مدركين . ستبقى ذكراه حية أعمار الأولين ثم تمتد بها الحياة أعمار الآخرين. وما كان ليتحقق لها ذلك الامتداد لولا الاحفاد فهم مصدر فضل يربو على فضل الاولاد. فماذا لو امتد ذكره أعمار الناس أجمعين؟... سيصبح حينئذ من الخالدين، ومن وسائل استدعاء، أو استجداء الذكر إلى الناس أو منهم كتابة ونشر ا لمذكرات الشخصية والسير الذاتية. فينزع أولئك واعين أو غير واعين إلى تخليد صورهم مطهرة ولو كانت مزورة.

ومع ذلك فحينما تشعل الشيخوخة الرأس شيبا تضىء لبصيرة صاحبها المستقبل القريب فيكاد يبصر حامل منجل الحصاد يقترب. هنالك تستعرحمى الخوف من الفناء فلا يستطيع أغلب الشيوخ مقاومة الرغبة فى البقاء فيعكفون على المذكرات ينشرونها كتابة أو شفاهة، المكتوبة

معروفة بذاتها. أما الشفهية فلا نعرفهما إلا حين يقطع الشيوخ صمتهم الطويل ويجدون من يستمع إلى أحاديثهم . حينئذ يتحدثون بلا انقطاع عن شبابهم ورجولتهم وكهولتهم وما مروا خلالها من أحداث مبهرة ولا يتوقفون إلا إذا انفض السامعون . فإن عاد سامعون عاد الشيخ إلى الرواية منذ البداية ولا يملون . فيعرف من لم يكن يعرف ماذا كان يشغل الشيوخ أثناء صمتهم الطويل. إنها مذكرات وسير ذاتية يؤلفونها ويعيدون تبويبها وترتيبها من حين إلى حين . الذى لا يعرفه الشيخ الثرثار ولا يعرفه المستمعون الاغرار أن غريزة حب البقاء الثائرة على اقتراب الفناء قد محت كل ما لا يتفق مع غايتها من صفحات الذاكرة فلا تكون مذكرات الشيوخ صادقة أبدا مع أنهم رووها مما يتذكرون صادقين. ثم تزداد الرغبة إلحاحا مع تقدم العمر يساندها إلحاح أصدقاء لا يكفون منذ اشتعال الرأس شيبا عن قول كالنذير : أكتب. أكتب فيقتنع، أو يقنعونه، بأن قد آن الأوان.. ليتكلم وكثيراً ما يأتى كلامه إعلانا عن نهايته، سواء امتد به العمر أوقصر..

(٣)

فيتأمل الشيخ ثم يسأل نفسه كيف أكتب ولا أكذب.. من هو هذا الراوى حتى يكتب مذكراته. منذ أن غادر القرية ليحيا الحياة وحيدا بعيدا أصبح انسانا من طبقات بعضها فوق بعض مما اكتسبه من خبرات. بعضها ممزق وبعضها مزوق . يرى كل واحد من الناس ما يختاره منها فيحسبه هو، فيعجب بعضهم ويشجب كثيرون ويغضب اخرون، ولا يملك هو من ذاته إلا الهيكل الاساسى لشخصيته الذى ألقيت عليه تلك الطبقات اضافة إليه وسترا له إن كان لابد من الكتابة فلنرفع عنه تلك المكتسبات لنعرف منه، على الأقل، علة ما يبدو فيها من نتوءات وفجوات وما يخترقها من ثغرات هى على تكوين هيكله مؤشرات.

فوجدته عاريا كما كان فى القرية.

إذن، فهذا الراوى ليس إلا بناء على أساس من صنع القرية، فأولى وأجدى أن يكتب مذكرات القرية، ثم يقدمها اعتذارا لكل الذين أغضبهم واعترافا لكل الذين أرضاهم بأنا لم يقصد قط إغضابهم أو ارضاءهم . انما هى القرية التي تسرب من مسامها. .

وكل ماعون ينضح ما فيه ..

عصمت سيف الدولة

القاهرة. صيف ١٩٩٤ وما قبله .

الفصل الأول

القرية

قال الراوي :

(١)

لما أن أختار المرحوم على باشا مبارك أن يفلت التاريخ من زمانه ومكانه وأحداثه وميراثه كتبه تبعا لترتيب الحروف الأبجدية. فقال فى كتابه " الخطط التوفيقية " تحت حرف القاف : إن "قاو" بقاف فألف فواو بلدة بالصعيد الاوسط تجاه ما بين "طهطا"و "طما" تحت سفح الجبل فى شمال قرية " الهريدى " . وكلمة قاو قبطية معناها الجبل لأنها بقربه ، وعندها بهذا الجبل مغارات كثيرة منحوتة كانت مساكن رهبان النصارى فى الازمان السابقة. وكانت هذه البلدة تسمى عند قدماءالمصريين " تكوو"وفى بعض كتب القبط "كوو" وكان اليونان يسمونها "انطيوبوليس ". وهى كلمة مركبة من كلمتين : "انطيو" الذى هو اسم لأحد الاعوان عند الرومانيين و"بوليس" التى معناها مدينة. فيكون معنى الكلمتين بعد التركيب "مدينة انطيو". وزعم اليونان أن

" انطيو" هو " ابن " الأرض " الذى قتله " هرقول " خنقا بين السماء والأرض بعد أن تحير فى أمره لأنه كان كلما مس الأرض برجليه ازداد قوة فلم يتمكن من قتله إلا فى السماء . وهذا من خرافات اليونان، أو أن ذلك لغز .. له معان اشارية يفهمها أربابها كما كتب الفرنساوية . قالوا وكانت هذه البلدة فى الازمان السابقة على شاطىء البحر ثم تباعد عنها (...) وفى زمن الرومانيين كان يقيم بقرب هذه البلدة على بعد أميال فرقة من عساكرهم. وكانت تلك المدة " راس خط " ثم تخربت ولم يبق بها إلا الآثار، فلهذا اسماها المقريزى " قاو الخراب " (...) وقد خلفت هذه البلدة ثلاث قرى فى تلك الجهة. احداها تسمى " قاو الكبيرة" "وقاو الشرق " وهى فى شرق النيل جنوب "ريابنة ابى أحمد" وفى الجنوب الشرقي لناحية " طما " الواقعة غربى النيل . والثانية "قاو النواوره " فى شرق البحر أيضا فى جنوب " قاو الكبيرة" وفى شمال " ريابنة الهريدي " والثالثة تسمى " قاو الغرب " فى غربي النيل تجاه " قاو الكبرى " بين " مشطا " و"طما ". وابو ا لجميع وا حد، وطباعهم وعوائدهم وتكسباتهم متحدة، ولغتهم تقلب الجيم دالا والشين المعجمة سينا مهملة . فيقولون فى "الجمل " مثلا " دمل "، وفى "الشعير" "السعير". وقد كانوا قديما أهل بلد مغفلين، حتى يقال انهم اغاروا مرة على قرية غربى النيل ونهبوها فملأ أحدهم غرارة من الدجاج وانزلها البحر وعدى البحر بالعوم وهو يجرها خلفه فى الماء إلى البر الآخر فمات الدجاج وهو لا يدرى أن الماء يغرقه. وملأ أحدهم غرارة من السكر وجرها فى البحر حتى نفد ما فيها وهو لا يدرى (...) إلى أن كانت سنة ٨٠ أو احدى وثمانين (١٢٨١ هجرية ١٨٦٤ ميلادية) فأتاهم رجل من الصعيد الأعلى كانوا يسمونه الشيخ أحمد الطيب يزعم أنه شريف جعفرى ويدعى العلم والولاية والمكاشفات فلغفلتهم احتفلوا به ودخلوا فى طاعته وأعطوه العهود على أنفسهم بالطاعة لله ورسوله ، فجرهم إلى معاصى الله تعالى حتى جعلهم من البغاة الخارجين عن طاعة الامام . آل أمرهم إلى أن سلط عليهم الخديوى اسماعيل باشا شرذمة من العساكر مع بعض الامراء فقتلوا كثيرا منهم وخربوا بيوتهم وسلبوا أموالهم وأمر بكثير منهم

فنفوا إلى البحر الابيض مدة حياتهم، ثم عفا عن باقيهم ولكن ذهبت بهجتهم وقلت أموالهم وظهرت عليهم الكآبة والفاقة من يومئذ، وقد بسطنا الكلام فى تلك الواقعة عند الكلام عن "العقال" فانظره..

حاضر يا باشا.. ننظر:

"العقال " قرية بجوار الجبل الشرقى بقسم " بوتيج " من مديرية أسيوط فى جنوب البدارى وفى شمال رياينة أبى أحمد. فيها مساجد عامرة وتخيل وأشجار وأبنيتها من أحسن أبنية الأرياف لخصوبة أرضها وجودة محصولها ويسار أهلها. وتمر بقربها ترعة "قاو" التى فمها من بحرى "قاو" تقطع جسر العقال بقنطرة فى غربها حتى تصب فى حوض البدارى (...) وللناحية جملة كفور متفرقة منها كفر على شاطىء البحر يقال له "كفر العقال " وكفر يقال له "كفر علام " فيه بيت عمدتها المرحوم عبد العال العقالى على شاطىء البحر، وكان صاحب ثروة وزراعة كثيرة. وقد أحسن إليه الخديوى برتبة "قائمقام " (أصبح أغا) بعد واقعة " قاو" لما جمع أهل بلده ومنعهم من العصيان مع من عصى، بل قام بهم مع العسكر على العصاة فحظى بالقبول (...) وسبب تلك الواقعة رجل من الصعيد الأعلى يزعم أنه شريف جعفرى ويسمى باسم أحمد الطيب، وانما هو الشقى . كان يتردد على هذه الجهة والأهالى تعتقده واجتمع عليه كثير من الناس وأعطوه العهود على أنفسهم بالطاعة فكانت طاعتهم معصية وصلاحهم فسادا ونصرهم للدين اذلالا، وذلك أنه اتت إليه ذات يوم "أمة" مسلمة مملوكة لبعض نصارى "قاو" تشكو إليه سيدها يريد وطأها وهى ممتنعة منه. فأحضر النصرانى وخيره بين بيعها وعتقها منعا للحرمة فامتنع النصرانى وأصر على تملكها، فلم يحسن الشيخ التدبير واخذها جبرا من النصرانى وآذاه وهّم بسلب أمواله فرفع النصرانى الشكوى للحكومة فطلب حاكم الجهة الجارية من الشيخ فامتنع عن تسليمها فتوجه إليه ناظر القسم فلم يعبأ به وازداد فى أذى النصارى وأظهر عدم المبالاة بالحكومة واجتمع عليه كثير من أهل بلاد الشرق فجاء مدير جرجا وأسيوط ورفاعة أغا صنجق الاربعمائة ومعهم بعض عساكر وعرب. فرفعوا السلاح ورفعوا رايات الحرب وجعل من جماعته سر عسكر وضباطا كترتيب الجهادية وأغراهم الحمق والسفه اغراء كثيرا فتعين عليهم الأمير شاهين باشا بشرذمة قليلة من العسكر ومعهم بعض مدافع . وبوصولهم هناك ضربوهم بمدفع مزقهم كل ممزق. وقتل الشيخ وكثير من جماعته شر قتلة . ونفى كثير منهم إلى البحر الأبيض وخربت " قاو " و "الرياينة" و " الشيخ جابر" و " النطرة " وتفرقت نساؤهم وذراريهم فى البلاد وسلبت أموالهم ومات كثير منهم فى الجبال ثم أدركتهم المراحم الخديوية فعفا عمن بقى منهم فرجعوا إلى أوطانهم ورد اليهم ما بقى من أموالهم . وذكرنا من ذلك طرفا فى الكلام على قرية " قاو"..

(٢)

تلك القرية " النطرة " نسبة إلى قبيلة "عرب مطير" كما يزعم أهلها، أو " الشيخ جابر" نسبة إلى مقام لولى الله الصحابى جابر بن عبد العزيز الذى اعتكف فيها حتى توفى ودفن فى مقامه كما يزعم أحفاده الاشراف من سكانها، أو " الهمامية " نسبة إلى همام بك عميد عائلة اقطاعية من قرية " ساحل سليم " كما اسمتها الحكومة فى أواخر القرن الماضى .

قبل أن يوجد كل أولئك وأجدادهم، يوم أن كانت أمواج البحر الابيض المتوسط ترتطم بموقع من مصر يسمى الآن القاهرة ، ولم تكن الدلتا قد ولدت بعد (حوالى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد)، كانت القرية قائمة على أحد المدرجات التى نحتها النيل فى حجر الجبل الشرقى متتابعة الهبوط إلى الوادى تبعا لنحر النيل مجراه على مدى عشرات من القرون هابطا إلى حيث مجراه، كانت حينئذ مركزا لاقدم حضارات الانسان على الاطلاق . ظلت مجهولة حتى اكتشفها برنتون (١٩٢٨) ونسبها إلى البداري العاصمة الادارية التى تتبعها الهمامية حين اكتشفها مع أن البدارى تبعد عن الجبل الشرقى بنحو عشرة كيلو مترات .

إن أردت أن تزور فهناك أعلى القبور تقتفى خطى "الخواجات " الذين يترددون عليها زائرين، على ما تختار من سلالم عدة منحوتة فى صخر الجبل صاعدة من حافة الوادى نحو مائة متر تنتهى إلى فتحات أبواب مستقيمة الاضلاع متوسطة الارتفاع تؤدى من خلال طرقات حجرية مصقولة إلى حجرات مرصوصة فيها منازل إلى آبار وأغوار. ستعجب كيف يغمرها الضوء حتى الاعماق. والضوء كاف لتتأمل ما على الجدر الملساء من صور ورسوم ، ستلاحظ ، لا شك ستلاحظ ، أن سكانها كانوا قصار القامة ، دقيقى الملامح، غير ملتحين، يرسلون شعر رأسهم الاسود المتموج على أكتافهم، بينما لا يزيد طول شعر الانثى عن شبر مضفور فى غدائر عدة، وقد تعلم من أهل العلم أنهن كن يكتحلن بمسحوق الاردواز الاسود، ويصبغن شفاههن باللون الأحمر، فان لفتتك كثافة الرسوم على الجدر المصقولة فلا تعجب. أنها تعبير عن اعجاب الانسان بما أبدع قبل أن يبدع أى انسان منذ الخليقة إلى أن سكن حيث تقف وتتأمل. فهناك، صدق أو لا تصدق، اخترع الانسان فى العصر الحجرى (البليوسينى) الكتابة ابداعا ذاتيا عبقريا بدون مؤثر خارجى قبل أن يهتدى إليها سكان "سومر" فى العراق بقرون طويلة، وباختراع الكتابة ولد التاريخ، فكأنك فى وقفتك تلك قابلة التاريخ أو قابلته وهو وليد.

فان التمست مخلفات آباء التاريخ الغابرين ستجدها قللا وأقساطا وأزيارا وأوانى من الفخار لا تزيد إلا بقايا عظام حيوانات صغيرة كالغزلان والقطط لا تزال باقية فى أغوار المقابر التى أفرغها المستكشفون من بقايا سكانها . قبل أن تفارق "الهمامية" لن يفارقك تاريخها العتيق. فلا تزال القرية تحمل فى الفئوس وفوق الرؤوس وبعض الطقوس بصمات تاريخها. كما لا تزال تصنع أوعيتها من طينها وتحيله فخارا على نار وقودها لم تضف إلا اشكالا إلى ما شكل الاولون، فمنها "الزير" الكبير ومنها "القسط الصغير" ومنها " البرمة" ذات الحجم المستدير، ومنها "المواجير" كبيرها للعجين وصغيرها للثريد، ومنها " اللواحيق " صحاف القرية وصحونها، ومنها "البلاليص " جرار تحمل فيها المياه من الآبار وترع الانهار، وخزائن لبن معتق بخميرة " الحلبة " ومسحوق الشطة والملح الكثير، نفاذ الرائحة، لزج البنية، يسمونه "المش "، يسبح فيه دود أبيض صغير يقولون أنه "منه فيه " فلا يبالون .

تلك القرية بادت. دكت دكا، وأصبحت يوم الغارة كوما من التراب، وعلى انقاضها جرت مذبحة من ابيدوا فريا على الخوازيق من أهل القرية المتمردة. وهرب من لم يبد.

(٣)

أدركت المراحم الخديوية أهل القرى بشرط "كفالة " استقرارهم على الخضوع . فكفل عثمان بن الأحدب من بنى سالم " قاو الكبيرة " فأسموها العثمانية، واتخذها اقطاعية ومازال يسخر العائدين إليها من أهلها فى تنمية أسباب الثراء حتى اتسعت طولا وعرضا و (غربا) ثم توزع فائض سكانها " نجوعا" تحيط بالقرية الكبيرة على بعد قليل منها، وكفل حليف السلطة "القائمقام " عبد العال العقالى عمدة " العقال "، الذى تولى جيشه الخاص بعد أن توقف القتال نهب القرى الثلاث الثائرة، عبودية العائدين إلى " الرياينة" فاقتطعها لنفسه وأهله وبنى قريته وأسماها "العقال القبلى"، فامتد الرخاء والثراء إليها من قرية متخمة فى الأصل ثراء ورخاء، وكفل من يدعى همام بك العائدين إلى " الشيخ جابر " و " النطرة" فأصبح الكفران قرية واحدة اسمها نزلة همام بك ثم " الهمامية ". ولم يكن همام بك فى حاجة إلى مزيد من الأرض . كفل أهل الهمامية وجاهة ليكون من الكافلين ، إذ هو الجد الاكبر لعائلة اقطاعية تسمى "السيلينية" موطنها قرية " ساحل سليم " شمالى القرية بنحو ثلاثين كيلو مترا كانت تملك جيشا من الرقيق الاسود المستجلب من جنوب الوادى تفرض به سلطتها وتستكثر أفرادها ممن "ملكت أيمانها " من نسائهم فغلبت عليهم الدماء الحارة وأصبحوا سودا كالزنوج أو أقل سوادا، أما الذين احتفظت لهم جينات الوراثة بلون أجدادهم من الترك فيحملون أنوف وشفاه الآخرين، لم يقم همام بك فى القرية أو قريبا منها وإن بقيت أطماع السيادة كامنة فى ذريته إلى أن يعود منهم إلى القرية من يحرس فقرها إلى حين.

بعد قرن من ذلك الحدث لا يزال أهل القرى يستعملون فيما بينهم من حديث اسماء قراهم البائدة . ولا يزال " للهمامية " اسمان : الشيخ جابر، والنطرة ، سيان . ولا يزالون يطلقون على ما جرى اسم "الغارة". غارة عدوانية شنها جيش مشترك من قسم "بوتيج " بقيادة ناظره، وقوة مديرية جرجا وأسيوط ، وقوة صنجق ا لاربعمائة بقيادة رفاعة أغا، انهزم فى مواقع كثيرة، فجاءهم مدد من العاصمة جيش بمدافعه، انضم إليه المرتزقة من أهالى العقال بقيادة عمدتها وتولى القيادة العامة الامير فاضل باشا وليس الأمير شاهين باشا كما ذكر الباشا. ذكريات أهل القرى الموثقة فى أغانى الدعوة إلى الثأر تذكر فاضل باشا ولا تذكر شاهين، كما تحصى ما نهبه المرتزقة من أهل العقال وتصفه وصفا عينيا . ولم تنسحب قصة"الغارة"من قصص الهمامية فهى تشغلهم فى موعد معلوم من كل عام .

يبدأ الحديث توقعا لما سيحدث ، ثم يحمى أواره مع الأيام ، ثم يتوهج ويتحول إلى معارك "بالشوم " تشج فيها الرؤوس، وتسيل فيها الدماء، وتكاد تقتل نزيفا لولا أن يغلقوا أفواه الجراح بمسحوق البن أو بالتراب، فتلتئم فتهدأ ثم تطيب النفوس إلى أن يفيض ماء النيل فى الصيف التالى حين يدنو موعد جنى بلح النخيل فيعودون إلى حديث الغارة،

يشهد المعاصرون نقلا عن المعاصرين بأن الشيخ أحمد، من عائلة المشاهرة، "أولاد مشهور"، وولده عبد الرحمن وآخرين كثيرين قد وقعوا أسرى فى يد فاضل باشا سارى عسكر افنديناِ، ثم يدعى ورثة الشيخ أحمد من فروع اخوته أن فاضل باشا قد نصب "الخوازيق " اسفل مغارات "المساخيط "، وقد هم بان يرفع جدهم الشيخ أحمد على خازوق يفرى أمعاءه، وكان

ولده عبد الرحمن شابا فتيا ذا جرأة ووفاء. وكان قد تمكن من الهرب ولكنه كمن قريبا وراء صخرة فى الجبل ينتظر أباه. فلما شاهده من عل اسيرا يهمون برفعه على الخازوق لم يهن عليه أبوه، فهبط إلى الوادى وتقدم إلى فاضل باشا يقبل قدميه ويتوسل إليه ألا يحمله عذاب رؤية والده الشيخ التقى الولى يقتل امام عينيه. وقال لقد كنت ناجيا فعدت لأفدى بحياتى من منحنى الحياة. فاعجب به فاضل باشا ورفعه قبل ابيه على خازوق يفريه، ولكنه لم يقبل الفداء. فلما مات أحمد على الخازوق ذاته بعد أن انتزع من احشاء ولده مات بغير وارث من صلبه فآلت تركته التى ورثها عن أبيه إلى أخوته شرعا.

فيقول ورثة عبد الرحمن: ابدا. نعم لقد كان عبد الرحمن شابا فتيا ذا جرأة ووفاء فلم يهرب تاركا أباه الشيخ. وكان فاضل باشا يقتل الشباب من الأسرى قبل الأسرى من الشيوخ لأن الشباب اشد خطرا. فلما هم بان يرفع عبد الرحمن على الخازوق تقدم إليه والده الشيخ أحمد وخاطبه والدمع يبلل لحيته البيضاء. ياسيدى لا تحملنى عذاب رؤية فلذة كبدى يموت قبلى فكأنك تقتلنى مرتين. وانى لأعدك، وأنا شيخ تقى، باننى أن سبقت ولدى إلى جوار الله سأدعو الله ألا يريك مكروها فى ذريتك. فسأل فعلم أن دعوات الشيخ مجابة، فاستعجل دعاءه ورفعه اولا على الخازوق . فلما مات فريا آلت تركته إلى ولده عبد الرحمن . فلما مات بعد والده الت تركته إلى ولده محمود وزوجته الهاربة بطفلها. ويشارك كل حاضر فى رواية ما جرى ثم يتأوه شيخ منهم ويقول: لا يفض هذا الخلاف إلا الشيخ أحمد الطيب الذى شاهد المجزرة وهو مختبىء فى مغارة المساخيط البحرية. مرق طيفه النورانى إليها فلم يره الجند المرابطون عند سلم الحجر الصاعد إليها. فلما تفقده الكفرة فافتقدوه ظنوا أنه مات وبعض الظن إثم، ولقد وعد الشيخ بانه سيعود. سيعود ان شاء الله ولوبعد ألف عام . إن اولياء الله لا يخلفون الميعاد. ويوصى بالتراضى على قسمة التركة مناصفة. فقد مات الشيخ أحمد وولده عبد الرحمن شهيدين فى سبيل الله. والشهداء احياء عند ربهم يرزقون. فلا يقبل الطرفان ويناطح الشوم الرؤوس فيقبلون. ويقتسمون ثمار عشر نخلات أو ما لا يزيد إلا قليلا.

(٤)

مات الشيخ محمد معتوق إمام مسجد الشيخ جابر بن عبد العزيز وأهل القرية يؤمنون بصدق ما أفاض عليهم من علمه. تنزل مياه النيل المباركة من انهار الجنة خلال مزاريب فى السماء عند التقاء الارض ببحر الظلمات، فى القرآن "جنتان " واحدة فى السماء فاين الثانية؟ انها جنة الارض التى يطميها النيل كل صيف بما يحمله من تراب الجنة ذهبي اللون وسبب حياة النبات والحيوان والانسان. فى الذكر الحكيم جنة عرضها السموات والارض لأن جنة الارض متصلة بجنة السماء عند التقاء الارض ببحر الظلمات لم يشاهد اللقاء أحد إلا الخضر عليه السلام . ولا يخفى أن أرحام أمهات المؤمنين لم تستنبت بذرة النبوة ذكرا إلا السيدة مارية المصرية لأنها نبتت وترعرعت من نبات ارض جنة الارض وشربت من مياه نهر يتنزل من انهار الجنة. فولدت ابراهيم عليه السلام الذى توفاه الله طفلا ليعيش فى جنة السماء وقد ولد بعيدا عن جنة الارض، ولو كان ابراهيم عليه السلام قد ولد فى مصر لعاش فيها عمرا. ولكن ذلك حكم الله سبحانه وتعالى ولكل حكم حكمة لا يعلمها إلا هو . فاللهم لا اعتراض .. هرب المصلون منذ أعوام فتوضأ وصلى صلاة الاستشهاد وحمل كفنه وترك "الشيخ جابر" وسعى مع الساعين إلى

حيث دلفوا إلى الجنة فى السماء شهداء فى " هوجة عرابى" ضد الكفار وخلفه فى الامامة ولده الشريف أحمد.

النيل يجرى من منابعه فى وسط افريقيا حيث تتجمع الامطار والسيول إلى مستقر له فى البحر الأبيض المتوسط . يحف به واديه الخصيب. تحرس الوادى عند جانبيه حين يدخل مصر سلسلتان من الجبال جرداء . تواكبانه حتى تسلماه إلى الدلتا فسيحة الأرض فيتفرق فروعا شمالى "مصر المحروسة"، هذا ما علمه بعد أبيه الشيخ أحمد محمد معتوق إمام مسجد "الشيخ جابر"، افتتحت فى القرية مدرسة فى مقر لصيق ببيت العمدة . طليت حوائطها بالجير الابيض. وزوقت أبوابها ونوافذها باللون الاخضر. فيها أرائك مرصوصة، وألواح سوداء معلقة على الجدران، يكتبون عليها بقطع من "الطباشير"ويمحون ما يكتبون حين يشاءون . وفى ردهتها اعجوبة الزمان . صوان مرتفع عريض ذو ضلفتين من قطع من الاخشاب متقاطعة . طليت من كل وجه بمثل اللون الاخضر الذى زوق الابواب والنوافذ، فإذا ما انفرجت ضلفتاه كشفتا عن طور جديد من تاريخ القرية، فوراءكل ضلفة " زير" معلق . تحته إناء من صفيح . الزير ملىء بالماء العكر، ماءالقرية. ولكنه ينضح ما فيه، فيتحول فى إناء الصفيح إلى ماء رائق . ماء "كالبنور" لم تذقه القرية قط . تلك هى " المزيرة " الاعجوبة. يحرسها "فراش " يحمل أكواباً من الصفيح . يملأها ماء رائقا ويقدمها بدون مقابل لمن يطلبها من التلاميذ! ولا يسقى أحدا من كوب شرب منه غيره إلا بعد أن يفرغ ما بقى فيه. وذلك عجيب. فكل الناس فى "المناضر" يشربون من قلة واحدة تنتقل من "خشم " إلى " خشم " ولا يبالون . ولقد كانت "المزيرة" سببا فى تهافت كثير من رجال أهل القرية على زيارة المدرسة . فعهدهم بالازيار فى بيوتهم أن تقوم على الأرض فلا تلبث أن يغطيهما فطر لا يقل اخضرارا عن طلاء المزيرة، ولا يشربون إلا من جوفها باناء من الفخار يسمونه "المنطال " خلدوه فى أغانيهم :

عطشان ياصبايا دلونى ع السبيل

آدى السبيل قدامك وعليه المناطيل

ولقد كان الشيخ أحمد محمد معتوق من بين الزائرين للمدرسة بعد أن غلق "الكتاب " الذى كان يعلم فيه الصبية القراءة والقرآن ثم الكتابة على الواح من الصفيح باقلام من الغاب ومداد من الصمغ الاسود. لم يتوقف عند المزيرة وقارا وأن كان قد استمع إلى من توقفوا عندها معجبا. ولكنه كان مع الزائرين الذين استمعوا إلى الشيخ حفنى أول ناظر لها وهو يشرح لهم مسيرة مجرى النيل على خريطة مزوقة معلقة على جدار حجرته، كان يشرح منفعلا فخوراً كما لو كان رب النهر العظيم . وكان الزوار يستمعون منبهرين بالنيل وشارح النيل .

.. واين بلدنا ..

اطرح الناظر المؤشر الخشبى. جمع بيده اليسرى كم القفطان عن اليد اليمنى وشده فانحسر عن ذراع ضامر ويد معروقة. أمر الزائرين طالبا أن ينظروا إلى طرف اصبعه السبابة وأن يتبعوه مبتدئا من اوغندا حتى دخل مصر من سودانها. مازال اصبعه طافيا على مجرى النيل يعرج يمينا ويسارا ويكاد يهم بالعودة عند قنا لولا أن يعود شمالا حتى يقترب من اسيوط يبطىء

زحف اصبع الناظر تمهيدا للتوقف كما يفعل القطار. حتى إذا ما بلغ موقعا جنوبي اسيوط بنحو خمسين كيلو مترا انحرف اصبعه إلى الشرق ووقف عند ادنى الجبل الاصفر مغادرا الوادى الاخضر وقال بحسم وحزم : هنا، نعم هناك حيث يلتقى النهر بالجبل اللقاء الاول والاخير فى نقطة لا مثيل لها بين المنابع والمصب توجد القرية على سفح الجبل. نصيبها من الارض الخضراء أقل من أن يستحق الظهور على الخرائط ولو خطا أخضر . هنالك يجيب غياب الوادى على سؤال حاضر. لماذا يقتتل أعواما اخوة واعمام ويشج بعضهم رؤوس بعض بالشوم من أجل ثمار عشر نخلات، ويسخر الجواب العيني مما أجاب به الباشا حين قال أنهم أهل بلد مغفلون، وزعمه الساذج أنهم اضاعوا فى المياه من فرط غفلتهم ما اغتصبوه من قرية على الضفة الاخرى من النيل. ولم يقل لماذا يسبحون عبر النيل غارة ليغتصبوا دجاجا وسكرا . لماذا كانوا من الغاصبين. الباشوات لا يعرفون الاجوبة الصحيحة على اسئلة الفلاحين . أنهم وهم من أبناء وادى النيل الخصيب قد حرموا من أن يكون لهم من أرضه نصيب . هو كذلك، ولا يزال البشر يقتتلون من أجل قسمة عادلة للأرض المكورة منذ أن استخلفوا فيها واستأثر بها الغاصبون .

فإذا كان الباشا أو الفرنساوية قد ظنو الاسطورة اليونانية لغزا له معان اشارية يفهمها اربابها فأهل القرى من اربابها، جاء الرومان المغتصبون يفرضون " العبودية " بحكم القانون الروماني على غير الرومانيين حتى التقوا بتلك القرى التى مردت على التمرد. فاقاموا لجندهم حصنا فى "قاو" جنوبي الشيخ جابر . فلما تصاعد التمرد تكاثر الجند فضاق بهم الحصن فانشأوا لفائض جندهم معسكرا على شاطىء النيل شمالى "النطرة " فانحصرت الهمامية بين شقى الرحى الرومانية . وإذا كان الخديوى اسماعيل قد اختار ابادة المتمردين فلأنه كان أقل ذكاء من هرقل بكثير، هرقل انتزع منهم الأرض مصدر قوتهم المتمردة التى حيره أمرها أو انتزعهم من الآرض، فقالت الاسطورة اليونانية " قتل ابن الارض خنقا ما بين السماء والأرض بعد أن تحير فى أمره لأنه كان كلما مس الأرض برجليه ازداد قوة "، الفلاح هو ابن الأرض، وهى مصدر قوته مادام قائما فيها ولكن الباشوات يتغافلون .

(٥)

حين عاد المطرودون من أهل القرية إلى حيث كانت قريتهم عاد كل ذوى قربى قريبة معا كما هاجروا معا، فعادوا جميعا على مراحل ليعيدوا بناء قريتهم مبتدئين من ذلك المبنى الذى لم يجرؤ فاضل باشا على أن يهدمه أو يقتل خدمه مخافة الله ، خاف الله فهدم مبانى القرية إلا هو، وقتل أهلها إلا هم ، المبنى هو ضريح ولى الله الشريف جابر بن عبد العزيز وخدم الضريح هم ذريته " الاشراف " من آل المعاتيق، مفردهم " معتوق " الذى دلف إلى جنة السماء تحت قيادة أحمد عرابى. الضريح مقام عند التقاء حجر الجبل الشرقي بارض الوادي . فوازاه العائدون بيوتا من حجر او لبن متراصة من الضريح صفا ممتدا جنوبا وشمالا على خط مستقيم . ثم توالت الصفوف متسلقة سفح الجبل يطل بعضها على بعض كان بعضها طوابق تعلو البعض الآخر، تقطعها دروب صاعدة مبطنة بحجر الجبل ذاته تحيلها كتلا منفصلة من المبانى الداكنة يحتضن كل منزل من كتلة أصم الجدران منزلا لصيقا به لا تقل جدرانه صمما، كما يحتضن الخائفون بعضهم بعضا فى خباء واحد .

وتعفو كل كتلة عن مكان فسيح تصب فيه أبواب المنازل يسمونه " الرهبة"، تحيط بها مجالس من الطين مستندة إلى الجدران يسمونها "المصاطب ". المنازل للنساء والماشية ولهم فيها مآرب أخرى . والمصاطب للرجال . والرهبة للافراح والمعارك والصبية والدواجن والكلاب ، أما " المنضرة " فبناء عبقرى الموقع من الرهبة ، عبقرى الهندسة بين البيوت عبقرى الغاية يكاد يجسد القرية بالطوب اللبن مبنى ومعنى وتاريخا وحضارة يبنونه على السجية بدون افتعال .

" فللمنضرة "، خلافا للمنازل ، نوافذ ترتفع قواعدها عن الأرض تبعا لارتفاع المنازل المحيطة بالرهبة. فهى تختلف ارتفاعا من منضرة إلى منضرة . فلا يرى الجالسون فى المنضرة، أية منضرة، المحصنات الصاعدات القاعدات النازلات من اسطح المنازل . وباب المنضرة مفتوح ابدا لاستقبال الاضياف، فهو دعوة دائمة لكل غريب زائر أو ابن سبيل تعبيرا عن الكرم اسمى فضائل الفقراء، ولكن الوافدين إليها لا يستطيعون منها ، ولو شاءوا، أن يتبصصوا على الرشيقات الرائحات الغاديات إلى " الابيار"، مستويات القامات يمشين الهوينا تحت ثقل "بلاليص" المياه المستقرة فوق قمم رؤوسهن على حاشية من طوق قماش ملفوف يسمونه "لوايه" إذ لكل كتلة من المنازل " بئر" تتسرب إليها المياه من جوف الأرض كالرائقة من الطين سائغة للشاربين . وإلى كل بئر طريق مرسوم ترد عنه الابصار هندسة المناضر.

والمنضرة شائعة الانتفاع يستقبل فيها المعزون فيمن يتوفى من الكبار اربعين يوما، والضيوف فى أى يوم يكرمون . ويشارك افراد العائلة فى الاستقبال ويتعاونون فى الاكرام فلو يعلم أحد غيرهم لمن القريب الميت ولمن الضيف الحي وفى ذلك يتكافلون . وفصلت كل عائلة منضرتها تفصيلا ثم فضلتها تفضيلا حين تعلموا من أمر المدرسة كيف تطلى الحوائط وتزوق النوافذ والابواب.

كل كتلة من المبانى الصماء تضم عائلة ، وكل عائلة تتوزع بيوتا، وكل بيت يتفرع أسرا . تلتقى الاسرة عند ربها، وتصبح الأسر بيتا عند جدها ، ولكل البيوت جد واحد تنتسب إليه العائلة وتسمى عادة باسمه . فهم . "أولاد سالم " و " أولاد مشهور" و " أولاد عمران " و "أولاد دويب" و " أولاد عيسى" ويقولون أن كل أولئك كانوا اخوة. ولا يزعم الاشراف ما يزعم الآخرون اذ هم متميزون بأصولهم المقدسة. ويرد النسابون من القرية كل بنيها إلى جد واحد يسمونه "فرج قدّاح "، وهو اسم لم يحمله أحد من بعده على غير عادة أهل القرى . ويكون ذكره عادة فى فترات التنقيب فى الماضي عن أسباب الفقر الحاضر. وهى فترات ممتدة. لماذا اختار فرج قداح من دون الارض جميعا ذلك الموقع المتميز وحده ببخل الأرض الخصيبة؟ يقول الجادون لأنه كان راعي غنم وليس الرعاة فلاحين بل هم حريصون على أن يبعدوا أغنامهم عن مزارع الناس . فسكن فرج قداح الجبل بعيدا عن الارض المزروعة كى يصون اغنامه فى مغاراته من سطو الذئاب ليلا، واستنبت فى شريط الارض الضيق غابة من النخل ليرعى اغنامه وهى ترعى فى ظلالها نهارا. وعاش مائة عام وعشرة يأكل التمر ويشرب اللبن كما كان يفعل قبل أن يحضر من أرض الحجاز. ونشأ اولاده على ما نشأ عليه فكانت ثمار النخل أعز أسباب الحياة والرفاة . ويقول الساخرون مرحين بل لم يكن قد رأى أو لمس فى أرض الحجاز ماء فلما رآه فى النيل عشقه فمازال يبحث حتى اهتدى إلى هذا المكان حيث يرعى غنمه جالسا على صخر الجبل "مدلدلا" قدميه فى مياه النيل .

ثم تكاثرت الذرية فاصبحوا عائلات تمردت مرارا ثم هاجرت اضطرارا ثم عادت كل عائلة تبنى كتلة من المنازل المتحاضنة المستقلة برهبتها ومنضرتها وبئرها، المنعزلة بعوازل من الدروب الصاعدة إلى الجبل، فلما اقتلعت الاجيال من اشجار النخيل ما يخلي الارض للزراعة أصبحت غيطان كل عائلة امتدادا لمساكنها حتى نهاية الارض لا تحيد. فوثقت الجيرة فى المساكن والجيرة فى المزارع والعزلة عن الآخرين رابطة القربى وأصبحت كل عائلة فيما بين افرادها قبيلة على رأسها "شيخ " تحكمها شرائع الحياة القبلية وقيمها الجمعية وتقاليدها الاجتماعية، التضامن بين الافراد حتى فناء الفردية ، والعداء للقبائل الاخرى حتى العدوانية، والاحتكام إلى الشيخ ونفاذ حكمه إذا حكم . ووحدة الاعتبار. ووحدة العار. ومع ذلك فهم فى مواجهة قرية أخرى قبيلة واحدة من بنى "فرج قداح "،

(٦)

تطل القرية على بقايا غابة من النخيل ضعيف الاكمام يفصلها عن بيوت الناس وعلى امتدادها "مصرف " يصب فيه مايسيل اليه من مياه الأبيار حين تستخدم الابيار، وما يتخلف فيه من مياه الفيضان كل صيف من كل عام فيبقى فيه راكدا إلى أن يجيء العام . قاعه الحجري يردها فلاتتسرب الى باطن الارض . تتخلله برك طينية صغيرة، تتمطى فيها الجواميس ويسبح فيها بط أسود وأوز أبيض ويلهو فى طينها أطفال عراة كأنهم لعب من طين . والمصرف لايجف أبدا وطينه عفن أبداً يسمونه "الخرّارة " ويضربون به المثل فى القذارة ، إذا اختفى منه الاطفال ليلا اختفت بالهدوء من بعدهم الضفادع الخفية بنقيق لاينقطع الا إذا ظهر النهار . ويمتد غربا من عند أقصى جنوب القرية جسر عريض سميك من التراب حتى يتصل بجسر اكثر عرضا وسمكا هو الجسر الشرقى لترعة "قاو" القادمة من الجنوب ممتدة إلى ما يلى البدارى شمالا، تقطع أول جسر القرية " سحارة". و "السحارة" فتحة مبنية بالآجر والحجارة تخترق بطن الجسر فتصل ما بين جنبيه. وتقطعه سحارة ثانية قبل أن يدرك جسر الترعة، ليتلاقى خلال السحارتين مصرفان قادمان من الجنوب ، من العتمانية . يغذيان المصرف الأول ، مصرف الهمامية ، بما يحملان من بقايا مياه الري فلا يجف ابدا. فإذا عبر الجسر ترعة "قاو" على ذاك الكوبري الخشبي الركيك التقى بمصرف رابع يبدأ منه ويتجه شمالا موازيا الجسر الغربى للترعة. فإذا تقدم غربا نحو عشرين مترا اخترقته سحارة ينتهى إليها مصرف خامس يحمل كل فضلات مياه الرى من "قاو" ليصبها فى أرض القرية . فإذا انطلق الجسر غربا اخترقته سحارتان تنفثان فى مصرفين آخرين يصبان فى أرض القرية ما تخلف من مياه رى مزارع "العقال القبلي" الشاسعة وما يخلفه النيل فى الحياض بعد انحسار مياه الفيضان . هكذا رأى القائمون على غزل شباك الري أن تحفر فى أرض القرية شقوق واسعة من الترع تحمل المياه إلى ما يليها من القرى شمالا وجنوبا، وشقوق من المصارف تحمل إليها الماء الفاسد الذى تتطهر منه مزارع تلك القرى حتى إذا بلغتها ركدت. وعلى جانبى كل ترعة وكل مصرف ما رفع من الأرض حفرا وألقى على الارض جسرا، ففقد أهل القرية من أرضهم القليلة قدرا غير قليل أما حَفرا واما كُفرا، وهكذا قيل : "من ليس عنده يؤخذ منه ومن عنده يعطى ويزاد ".

حين يفيض النيل واعدا الناس بالنماء والرخاء يزيد طين القرية بلة ، إذ يطارد أهلها حتى شعاب الجبل، تمتلىء الترع أولا فيكون ذلك نذيرا لهم بأن يهجرها القادرون من الشباب

والغلمان وصغار الفتيات عابرين النيل إلى الغرب حيث تمتد مزارع القطن إلى مالا نهاية. أهل الغرب لا يرون الجبل الغربي من فرط ابتعاده عن النيل . هنالك المدن الكبيرة والقرى وافرة الثراء، والحدائق الغناء، وهنالك تجرى قطارات السكة الحديد. لا تتوقف إلا عند المحطات. والمحطة نقطة يقف فيها القطارلتنطلق منها المدنية . فهى بناء حديث متين فيه مخازن وادوات تحتاج إلى حراس . وفيها موظفون فى حاجة إلى ناظر. وكل أولئك كانوا فى حاجة إلى مساكن فانشئت لهم المساكن الحكومية لموظفي الحكومة. ولموظفي الحكومة ، مثل باقى البشر، اسر من زوجات واولاد وبنات وربما حموات . فتحولت المحطة منذ البداية إلى قرية صغيرة حديثة ، يفد إليها ويقيم فيها باعة المأكولات والمشروبات لمن يعبرون فى القطارات . وانشئت المقاهى والمطاعم لمن يفدون إليها ينتظرون القطار. وانشأ اصحابها بجوارها مساكن لهم ولأسرهم . والزحام حاضن الجرائم، فانشئت نقط الشرطة للمحافظة عى أمن مجتمع المحطة فجاء إلى المحطة ضباط ومساعدون وجند واسلحة و "تليفون " وخيول وكتبة ودفاتر وحراس وخدم من أفراد الشعب للشرطة التى هى فى خدمة الشعب . ولكل أولئك أو لاكثرهم اسر من زوجات وأولاد وبنات وربما حموات، فى حاجة إلى مساكن تليق بهم، وهكذا بينما كانت محطة القطار تحمل أهل الغرب إلى شىء من مدنية الغرب بقى الشرق شرقا لا يريم .

وإلى الغرب يذهب شباب القرية صيف كل عام قطعانا لجنى القطن لاصحابه. لكل قطيع راع من الرجال . سبق للرجال أن باعوا عمل القطيع إلى أصحاب مزارع القطن واقتطعوا لانفسهم جزءا من اجر كل رأس جانية. بعد نحو شهر يعودون جميعا إلى القرية فرحين بما جمعوا من نقود معدودة. ثلاثة قروش مقابل جمع ما يزن قنطارا من القطن، ولكل حسب جهده ناقصا ما يقتطعه حزب رعاة القطيع .

حين يعودون تكون أرواح المتخلفين عن التراحيل من الشيوخ والكهول والنساء قد كادت أن تبلغ الحلاقيم . فقد كان عليهم منذ نذير الفيضان أن يسارعوا إلى قطع "الدرة" قبل أن يدركها الطوفان والرجال قليل . "الدرة" نبات طويل السيقان أغلبه إناث مثمرات يلقحها ما تنقله الريح من عيدان الذكور المتناثرة بينها . العود الذكر ذو عصارة سكرية. فما أن يؤدى وظيفته فى حفظ النوع وتبرز الثمار حتى يجمعونه انتقاء على ضوء العقم ويمصوه مصا كما يفعل الناس بقصب السكر الذى لا تعرف القرية زراعته. تبقى المثمرات على رأس كل واحدة ثمرة واحدة، بيضاء مكورة كقناديل الاضاءة فى مساجد المماليك. فهى عند أهل القرية "قناديل ". القنديل كتلة متماسكة من حبوب دقيقة مشدودة إلى عشب اسفنجى البنية يسمونه "القيشة" لا يفيد شيئا فتعافه حتى البهائم. فيسمون من هو غير ذى فائدة من الرجال " قيشة ". تحصد الدرة بقطع السيقان عند ما يلي الأرض ثم تفصل القناديل عن السوق، يستعملون فى ذلك منجلة من حديد مسنون يسمونها "الشرشرة". أما السوق فهى " البوص " فيترك فى "الغيط " حتى يجف ثم تحمله الجمال والدواب إلى المنازل ويخزن فوق أسطحها أكواما، فتكتسى بيوت القرية بغطاء ذهبي اللون من البوص، وهو مصدر الطاقة التى تتحول إلى نيران ذات لهب فى كوانين الطبخ و "أفران الخبيز" وبين الساهرين فى ليالي الشتاء قارسة البرد. وهو مصدر الكوارث حين تطيش شرارة من نار فتدركه فى مقامه العالي فيمتد اللهب منه إلى ما جاوره من بوص فوق اسطح المنازل المجاورة.

أما القناديل فتفرش على أرض ممهدة مربعات مسطحة يسمونها "المساطيح ". لكل زارع مسطاح معلوم . تحميها وحدة المصير. فمساطيح الدرة واجران القمح ، وهو قليل ، متجاورة يصونها من الحريق المتعمد أن من يحرق مسطاحا فقد حرق مساطيح العائلة كلها، ويصونها من السرقة والغربان فصيل مختلط من الغلمان . يقلبونها ذات اليمين وذات الشمال حتى تجف بعد نحو خمسة أيام . والغلمان لا يستعجلون جفافها شغفا نهما بالقناديل المشوية . يسمونها "فراخ "، توضع غضة على نار ذات لهب توقد جنوبي المساطيح . الرياح هناك شمالية دائما. ثم تنحت بالاسنان نحتا. ويهلكون من الحصاد قدرا غير قليل إذ لا يكف، أولئك الاطفال الحراس ، عن شي القناديل ونحتها ، يدفنون بقاياها فى " تُرُبٍ " من التراب ، وان سأل سائل يتهمون الغربان .

فإذا جفت القناديل فى المساطيح تعاونوا فتكاثروا فى كل مسطاح وقد جمعت فى مثل التل الصغير يسمونه " سماط "، ولا يزالون يضربونها بعصى غليظة من خشب السنط ضربا منتظم الايقاع وهم يرددون فى جماعة "هيلا هوب والدايم الله "، إعلانا عن انهم يبذلون كل جهدهم ولا يخافون الموت، وراء حاد منهم يجيد الحداء الحزين، فإذا انفرطت الحبوب من القناديل تاركة اكمامها الاسفنجية التى لا تفيد شيئاً ألقوا القبشة خارج المسطاح ثم جمعوا الحب الابيض وجاء الكيال يحمل معيارا من الخشب مختوما بختم الحكومة . فهو- أى الكيال- من القائمين على وظيفة عامة بدون أجر من الحكومة. ويكون قد توافد إلى المسطاح نفر لكل منهم أجر معلوم يستوفونه عينا آخر العام مقابل ما قدمت أيديهم طوال العام ". "المزين " الذى يقص شعر الرؤوس والذقون. والسقا حامل قرب الماء من الابيار والانهار إلى من يريدون. و "اللحاد" حارس المقابر ودافن الموتى فيها. و "الفقى" قارىء القرآن . و "الدلال " القائم على رسم الحدود بين الغيطان. و الصرماتى" الذى يرتق النعال. وصاحب السفن الخشبية التي تعبر بالناس النيل إلى "الغرب " فى موسم جنى الاقطان . و " الداية" التى تولد النسوان وكل من ساعد ذاك العام فى الزرع أو القلع أو القطع أو شارك فى معركة العصي الغليظة التى طردت الحب من أكمامه. وأخيرا "الكيال " الذى يحمل معيارا من خشب مختوما بختم الحكومة. بعد أن يكون كل أولئك المستحقين قد استوفوا أجورهم كيلة من درة لكل واحد أو حسب التساهيل، والارزاق على الله والحمد لله وكل عام وانتم بخير. ما تبقى يكال فى اكياس من شعر الماعز يسمونها " التلاليس ". فى كل تليس ثمان كيلات تحملهما الدواب إلى المنازل بعد جولة مباراة فى حمل الاثقال. وهى رياضة قديمة كان يمارسها شباب الفراعنة الغابرون فيتبارون ويفوز منهم من يرفع إلى كتفه كيسا من الكتان مليئا بالرمل الآن يتبارى فيها الشباب من الهمامية ويفوز منهم بكيلة درة من يستطيع أن يرفع التليس بما فيها من الأرض إلى كتفه أو إلى ظهر الحمار. وهو غير هين . كل هذا واسراب من الاطفال تحوم حول المسطاح حتى يفرغ منه أهله فيبدأ سباق الاطفال، فسواء شاء أهل المسطاح أم لم يشاءوا قد دفع الضرب الشديد بالعصى الغليظة بعض الحبوب إلى باطن الأرض فدفنها. الاطفال يعرفون ذلك وينتظرون . فما أن تخلو لهم الارض حتى ينكبوا عليها متزاحمين. يحفرونها وينبشونها بأظافرهم المرسلة متزاحمين على الحب المدفون . فما هى إلا ساعة حتى يحظى كل منهم بما لا يزيد عن ملء كفيه الصغيرين من بقايا الحبوب، هى كافية على أى حال ليشترى بها من البائعة المتربصة منذ البداية قطعة من "العسلية " ، يلوكها فى فمه وهو يسابق غيره إلى مسطاح آخر ليحصل على نصيب أخير من عائد "القرقرة".

أما الحب الذى حمل إلى المنازل فقد استقبلته ربة المنزل واودعته الصوامع أو الحواصل. وحاصل الدار غرفة ضيقة، من بناء فى ركن الدار. تصب فيه الحبوب من فتحة فى أعلاه صبا، وتؤخذ منه الحبوب من فتحة فى أسفله غبا . فإذا ما أفرغ المحصول فى جوفه سدت ربة المنزل فتحتيه بالطين سدا. ولا يفتح بعد ذلك إلا بإذنها. أما الصوامع فهى أوعية من الطين المتبل بروث الحيوانات والتبن . تتدرب على انشائها الفتيات منذ الصغر ويتفاخرن باتقان صنعها متى كبرن. إذ الصومعة على هيئة "الفاز" الذى يبدأ بناؤه على قاعدة ضيقة مستديرة ثم تتباعد جدرانه حتى إذا ما بلغ غايته ارتفاعا تلاقت تلك الجدران عند رقبة ضيقة مقابلة للقاعدة استدارة واتساعا. تختلف عن "الفاز" فى أنها بالغة الضخامة. قد تبلغ المترين ارتفاعا وتزيد. تبنى على مراحل متتابعة. القاعدة أولا ثم تترك إلى أن تجف ثم تنهض الجدران من أطراف محيط القاعدة شبرا شبرا ويترك كل شبر حتى يجف. وهكذا يستغرق انشاؤها اشهرا كثيرة. الاعجاز فيها أنها حين تتم فكأنها فى وحدة مادة انشائها من خليط ، وسمك جدرانها ، واتساق دوائرها، واستوائها على محور قاعدتها، قد أنشأتها آلة حاسبة لا تخطىء المعايير والابعاد ولا المحاور ولا الدوائر. تصبح "كالفاز" هندسة واتقانا. هذا مع أن البنات ينشئنها وهن من خارجها ومن حولها دائرات. وهن لا يعرفن المقاييس ولا الحاسبات، ولا يملكن من حيلة الا الحس الجمالي والاعين الثاقبات. إن الصوامع قطع من الفن المعمارى الذى تمتد جذوره إلى بديع الفنون البدائية فى العصر الحجري وحضارة الهمامية. ولايزال للصوامع دور حضارى غير تخزين المحاصيل .

للصومعة، مثل الحاصل، فتحتان . فتحة فى أعلاها تصب فيها الحبوب، وفتحة فى ادناها تؤخذ منها الحبوب. فإذا انطوت على ما جمع فيها سدتها ربة المنزل بالطين فلا يؤخذ منها إلا باذنها.

يجرى كل هذا بينما مياه الفيضان الجارية تزحف على الارض تهدد المتخلف نموا من الزرع، المتخر جفافا من البوص، ومساطيح الكسالى عن دق القناديل حتى تنفرط الحبوب فتجمع قبل الطوفان. ويجرى كل هذا تحت اشعة الشمس الحارقة فى القيظ الشديد. ومن القيظ تشتق كلمة "القيضى " . فهم يزرعون "القيضى" وهم يقطعون "القيضى" وهم يدقون "القيضى" وهم يجمعون "القيضى". وهم يخبزون من حب "القيضى" .. "عيش القيضى". وحينما يقولون "ادرة" يعنون نباتا آخر هو المسمى "اذرة" وهو قليل فى القرية ويسمونه "شامى ". أما إذا كان لابد من الحذلقة فمن يقول "ذرة عويجة" يعنى "القيضى". والقيضى أبلغ دلالة على نبات يزرع فى أول الصيف ويحصد فى أول القيظ .

حتى إذا ما انقضى شهر الشقاء وكادت ارواح المتخلفين من الرجال والنساء تبلغ الحلاقيم يكون قد عاد إلى القرية من تركها من عمال تراحيل جنى القطن فى أرض الذين لا يرون الجبل الغربي ، فيشاركون فى جنى البلح الذى لا تدركه فى عليائه مياه الفيضان . يجزون سباطه ويجرونه فيما يكون تحت النخل من ماء أو يحملونه حتى إذا بلغوا المنازل فرطوه من السباط وفرشوه على الاسطح أياما ثم قدموه إلى الافران يقددونه على نار هادئة ثم يحشرونه حشرا فى بلاليص ويودعونه الخزائن . والخزانة غرفة اساسية ضيقة فى كل دار . غير ذات نوافذ أو منافذ. يحفظون فيها بلاليص البلح والجبن والمش والدهان . وفيها يودع الخبز وما يلزم

" المطبخ " من بصل وثوم وملح وفلفل . بابها ضيق ذو " غلقة " من الخشب ومفتاح خشبى واحد لا يهتدى إليه ولا يستعمله الا ربة المنزل. ولا تأذن لغيرها باستعماله.

حينئذ يكون الفيضان قد بلغ ذروته فعزل القرية عن باقي الدنيا. تدرك مياهه المنازل ادنى المنازل إلى الوادي ، وتطمى الابيار، وتحصر القرية فيما بينها وبين الجبل وتقطع الطرق إليها إلا ذلك الجسر الذى يصلها بشبكة من الجسور. فيكون على قاصدي بيوتهم أن يصعدوا الدرب الصاعد من ادنى الجسر إلى الجبل يلتمسون منازلهم دائرين خلال شعابه حتى إذا ما بلغ أى واحد قمة منازل عائلته وتأمل القرية المسجاة كجثة هائلة لفظها النيل وألقاها على شاطئه، ثم مد بصره إلى مالا نهاية له غربا من صفحة الماء وقد رسمت عليها خطوط داكنة من جسور الترع والمصارف ودوائر قاتمة من أطراف غابات النخيل يلفته من كل هذا ذلك التقاطع العمودى، غربى الكوبرى، بين جسر القرية الممتد من الجبل غربا، وجسر ترعة قاو الممتد شمالا وجنوبا، كأنها صليب هائل عائم على صفحة المياه الساكنة. يسمى أهل القرية ذاك الموقع " الصليبية". يمر بها كل وافد إلى القرية أو مغادر لها أو عابر من الجهات الاربع إلى الجهات الاربع . تظللها ثلاث شجرات باسقات من السنط . يتجمع فى ظلها الذين لا يطيقون الصبر على الشعور بانهم في القرية محاصرون..

الفصل الثاني

الناس

قال الراوي :

(١)

حين يحاصر الفيضان القرية تختلط فيها الكائنات الحية جميعا حتى تكاد تضيق بها، الرجال والنساء والشباب والغلمان، والصبية والاطفال ومن يكون النيل قد قطع عليهم طريق التجوال بين القرى من أولئك الغجر من الرجال اللصوص ونسائهم الغاويات وأولادهم " العفاريت " وحُمرهم وماعزهم، ثم الماشية والدواب والدواجن والكلاب، وما لاذ بالقرية هربا من الماء من دبيب الارض ثعابين وعقارب وجعارين وخنافس وفئران تتصيدها قطط كانت ضالة عنها فاهتدت إليها، وتغزوها سحب من الناموس والذباب والزنابير التى جاءت إليها سعيا وراء البلح المنشور، والعصافير التى آوت إليها بعد أن اغرق النهر اعشاشها وغذائها، ومن حين إلى حين يطارد الصبية ثعلبا ضامرا جاء وراء الدواجن نازلا من شعاب الجبل فلما لم يستطع الشبع لم يقو على الصعود فيتقافز اعياء إلى أن يدركه الصبية فرحين بوجبة من الشواء فى الهواء الطلق أباحها للجياع من افتى بان الضرورات تبيح المحظورات، وقد يطارد الشباب عند الفجر سربا من الغزلان انحدرت من أعلى الجبل لترتوى من مياه جاءت إليها جارية. والحدأة صافات تفتش بابصارها الحادة عما يسهل خطفه من صغار الدواجن أو القوارض، والغربان ايضا تترصد دائبة من فوق شجر النخل أو السنط أو اسطح المنازل وفى الدروب ذاتها يتفقدها

الناس كل يوم لعل من بينها غرابا "نوحيا" أسود لا يخالط ريشه بياض يقدمونه إلى أم يقلقها أن ولدها ألثغ ينطق الراء لاما ليأكله مشويا ففيه الشفاء.

هنالك فى موسم التحرر من ارهاق العمل الشاق يصبح الناس اكثر انسانية فتنفك قليلا عقد التكتل القبلى ويتزاور الناس ويتسامرون ويلهون مختلطين فى الرهبات وعلى المصاطب وفى " المناضر " اختلاط الاقارب ذرية فرج قداح . فتكشف جينات الوراثة عن عبثها التاريخي أو عبث التاريخ بها منذ الوافدين إليها وما حولها من أعراب اليمن تسللا من الجنوب فى عصر ما قبل التاريخ ثم الفراعنة واليونانيين والبطالمة حتى انطيوبوليس ومعسكر جند الرومان ومن إلى مصر فاقام من العرب والترك وما يكون قد ادرك وادي النيل من طلائع قبائل الوندال الاوربية التي طاردها الاوروبيون حتى طردوها فعبرت مضيق جبل طارق إلى أفريقيا وانساقت شرقا تاركة على مدى رحلة هجرتها الطويلة شمال الصحراء الكبرى بقايا من الوجوه زرق العيون ذوى الشعر الذهبي ، ثم المماليك المستوردين وجيش الاتراك الغازين وجند الانجليز المستعمرين. ألوان الناس فى القرية كما فيما يليها من قرى درجات ما بين الابيض والاسود. فى القرية كما فيها يليها من قرى جنوبي اسيوط وشمالي سوهاج وجوه بيضاء يشف جلدها عما تحته من حمرة فيصبح ورديا، عليها عيون خضر وزرق أو بين بين وشعر ذهبي باهت كشعر اولاد "الغز" الذين استجلبهم الجدود من القوقاز عبيدا لهم ليعلموهم كيف يكونون ملوكا عليهم، فيطلق أهل القرية اسمهم على كل ذي وجه ابيض وشعر ذهبي . لا يقولون أنه من اولاد " الغز "فهذى إهانة، انما يقولون "زى ولاد الغز" ولا يعرف القائلون عن "الغز" إلا أنها كلمة تصف لون البشرة والعيون، وفي القرية كما فيما يليها من قرى وجوه سود لابد أن تكون جذورها ممتدة فى عمق التاريخ إلى القبائل التى وفدت إلى مصر من أقصى جنوب الوادي عام ٧٥١ قبل الميلاد فاستقروا فيها قرنا وكانت منهم اسرة حاكمة هى الاسرة الخامسة والعشرون وخمسة ملوك فراعنة : بغنجى، وشاباكا ، وشيتاكا، وطهرقا، وتانون امانى . إلا أن الغالب الاغلب منهم ذوو بشرة سمراء وعيون حوراء وشعر فاحم تكاد تنطق بأصولهم العربية . ومع ذلك فان كثيرا منهم يقلبون الجيم دالا والشين المعجمة سينا مهملة فيقولون فى الجمل مثلا الدمل وفى الشعير السعير وفى الجبل- طبعا- الدبل. وحين يريدون الاشادة باحدهم يقولون أنه " ددع " يعنون أنه "جدع ". وتتميز القرية حتى عن أقرب القرى إليها بما يميز كل قرية فى صعيد مصر. لهجة الحديث وأسلوبه. فاهل القرية يبدأون كل الكلمات التى لا يتخللها حرف مد بهمزة مكسورة، وتنتهى كل الكلمات عندهم بسكون مشددة . لا يقولون مثلا " محمد" بل يقولون "أمحمد" ويفتحون الحرف السابق على الحرف الاخير ليكون سكون الاخير اكثر ظهورا. جرس الكلمات قريب من جرس لهجة تونس ، ولمفردات الكلام عندهم دلالات خاصة لا يكاد يفهمها أحد. فلو سئل احدهم عما حدث له أمس فقد يقول : يوه . يعنى أنت ما اسمعتش؟.. ربنا ستر والله . علشان تعرف أيه؟ هناك تحت الشمش وأنا جاى من عند المريس شفت ضراه قلت يوه ياولد الكلب، حطيت عينى على طرف الدبرك ودعكت ، هو يدعك وأنا ندعك. أول ما وصلنا جسر الترعة راح مهلب رحت مجلب غطست من غربه طلعت من شرقه.. ابن القرية يقول : ألم تسمع عما حدث. لقد ستر الله. ولاجل أن تعرف ففى ذاك الوقت قبل الغروب (تحت الشمش) بينما كنت قادما من شاطىء النهر، رأيت ظله يتبعنى فعرفت أنه يقصد الاعتداء على وانتبهت إلى طرف عصاه متى ترفع فجريت. هو يجرى وأنا أجرى. فما أن وصلنا إلى جسر الترعة حتى قفز نحوى (راح مهلب أى إلى

أعلى) رحت مجلب (أى قفزت إلى اسفل الترعة) وغطس فى مياهها من الجسر الغربي حتى خرج عند الجسر الشرقي سليما .

وهم يستخدمون فى أحاديثهم الكلمات ذوات الدلالات الجنسية ببساطة وتلقائية فى سياق ما يقولون مثل كل الكلمات الاخرى بدون تورية كما يفعل شراح المذاهب الشرعية وهم يصوغون قواعد التعامل بين الذكور والاناث وما هو محرم من اساليب ذاك التعامل وما هو مكروه وما هو مندوب وما هو مباح بالفاظ لا تقل صراحة وصدقا عما يكتبه الاطباء فى مراجعهم المتخصصة فى التشريح وأمراض النساء والامراض التناسلية ، إلا أى تعبير عربى فصيح أو عربى دارج يدل على الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة بل يستعيرون من أعماق التاريخ لفظ " سخمطة " فيقال أنه هو سخمطها هى . وهى تقول أنه سخمطها، و" سنخمط "هى اسم اللبؤة فى الهيروغليفية . واللبؤة منذئذ ، وحتى الآن ، ذات دلالة جنسية حين تطلق على المرأة وقد كانت تطلق على الاتصال الجنسي فى عصر الفراعنة فيستعملها ورثتهم بدلالتها تلك دون حرج أو حياء وهم لا يعرفون لها أصلا .

أما أسلوب حديثهم ففريد. فلا تكون الاجابة الاولى على سؤال مفاجىء إلا سؤالا اخر. كما لو كان الزمان قد دربهم على الانكار قبل الاطمئنان . يامحمد رحت السوق عشية (أمس)؟ أمال رحت وين؟ (أين أكون قد ذهبت اذن)، ولهم طريقة عجيبة فى اجتناب الاجوبة الصريحة. عملت إيه يامصطفى مع ولد اخوك ؟- يعنى عنعمل إيه؟ شوف ياعم برعى أصله كان فيه واحد ملك وما ملك إلا الله وكان له خوات كتير.. ويستطرد فى رواية قصة مشابهة تماما لقصص " ألف ليلة وليلة" مضمونا وشكلا ومؤداها أن ابن أخ الملك كان جاحدا أفضال عمه. فيقول الآخر. على أى حال المسامح كريم .

وثمة مالا يكون موضوعا للتساؤل ابدا. أنه مسلم . ذلك هو انتماؤهم العربى ، بيض أو سود أو سمر انهم عرب عرب . ولو انكرت على أحدهم عروبته لغضب وربما ضرب. و يزالون ينقلون عن أجدادهم شجرة جدودهم صاعدين من جذر فى الحجاز إلى جزع فى مصر إلى فرع فرج قداح جدهم الاعلى . ولقد كانت لهم ، فيما يقولون ، شجرة مكتوبة على جلد غزال بمادة العفص الصمغية فقدوها أيام "الغارة" فكان أول ما فعله العائدون بعد أن استقروا أن اصطنعوا شجرة ملفقة مما حفظت الذاكرة وارتضوها مادامت جذورها عربية. ويتخذون من الكرم الذى يبلغ حد السفه اية على محتدهم العربى . ويبدو أنهم يعتبرون أنفسهم أكثر أصالة فى العروبة من بدو الجزيرة العربية ، لا لأن القران قد فرق بين الاعراب المنافقين والعرب المؤمنين فان احدا من فقهاء القرية لا يحفظ كل آيات القران ولا يلتفتون جميعا إلى دلالة ما يحفظون من آياته ، ولكن لأن اغانى موروثة مما يودع به الحجاج تتحدث عن عداء العرب وتحذر منه وتوصى الحاج بان يعد له ما يستطيع من قوة. تقول البنت وهى توصى أباها وقد نوى الحج :

وأن نويت يابا خد البندقية   دا ولاد العرب على العد ميه

وأن نويت يابا خد القيربانه   دا ولاد العرب على العد يامه

والبندقية والقيربانة سلاحان ناريان . والعد هو ذلك الموقع من شاطىء الجزيرة العربية الذى ترسو عنده السفن الخشبية "المعديات " لتفرغ عنده حمولتها من الحجاج بعد أن تعدى بهم البحر الاحمر قادمه من القصير. فذاك هو الطريق إلى بيت الله. تبدأ تباشير الحج قبل موعده بشهور. فتستقبل القرية وما يليها من قرى افرادا وجماعات قادمين من المغرب على دروب الصحراء التى تنتهى إلى مدينة أسيوط . ثم ينتقلون بين القرى جنوبا كالطيور المهاجرة. تستضيفهم كل قرية ثم تضيف إليهم من ناداه الرسول إلى الحج . ذلك لأنهم يسقطون شرط "الاستطاعة" والا ما حج أحد . أو ربما اسقطوه لأن الاستطاعة ساقطة من واقعهم وامالهم فهم لا يرجئون أداء فريضة الحج فى انتظار أمل لارجاء فيه. وحين يعود الحجاج ينقلون إلى ذويهم من مغامرات الذهاب والعودة اكثر مما ينقلون من انباء طقوس الحج وروحانياته . ولا يخلو حديث رحلة عن نبأ حاج لقفته سمكة سوداء كالليل ، كبيرة كالناقة ، خلال رحلة عبور البحر. وأحاديثهم عن عرائس البحر العاريات تغار منها الزوجات لو كانت زوجات القرية يغرن . وهن لا يغرن أولا يبدين الغيرة ويفضلن التفاخر بفحولة ازواجهن فيما بينهن .

ويمثل ذاك العداء لاعراب الحجاز ينظرون إلى العرب الذين لا يزالون يسكنون الخيام فى اطراف الوادى ، وسطاء السرقات بين الجناة والمجنى عليهم يردونها بعد أن يستوفوا "الحلاوات". إن أهل القرية يعتبرونهم عربا درجة ثانية لا يمتازون عن الغجر، ويشككون فى إيمانهم شكا دليله أن ليس فى مرابعهم مياه كافية للوضوء وليس فى مضاربهم مساجد للصلاة .

أما العرب فهم هم العرب.

أو " البدو"..

وهو لقب يعبر عن المودة يطلقه النصارى على المسلمين أفرادا وجماعات اكبارا وتقديرا حيث يريدون الاكبار والتقدير. لابد أن تكون له جذور تاريخية من العلاقات الاجتماعية بين الوافدين العرب مع الفتح الاسلامى وبين اقباط مصر فى صعيد مصر على وجه التخصيص حيث انتشر الاسلام دينا والتعريب لغة على مدى قرون بعد الفتح نتيجة تفاعل بين الوافدين والمقيمين. ومع ذلك ففى القرية وما يليها من قرى الصعيد مؤشرات قد تكون أنباء معاصرة عن علائق السنين الخالية. أولها وأوضحها دلالة الشعور المستقر بالمساواة والندية . ففيما بين النصارى والمسلمين، افرادا أو أسرا أو عائلات لا استكبار ولا استهتار. أما فى القرى فللمسلمين قراهم لا يخالطهم فيها الا قلة قليلة من غير المسلمين وللنصارى قراهم المجاورة لا يخالطهم فيها الا قلة قليلة من المسلمين. ولكل قرية عمدتها ومشايخها وخفراؤها . أما أراضيهم ومزارعهم المتجاورة المتداخلة فقد علمتهم كيف يتعاونون فى الحرث والزرع والرى والحصاد والحراسة و جمع المحاصيل . ولا يعرفون جميعا الا تقويما واحدا لعدة الشهور. توت ، بابة ، هاتور، كيهك ، طوبة ، أمشير ، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة ، أبيب ، مسرى الذي وضعه الفراعنة متسقا مع مراحل الزراعة واحتفظ به أقباط مصر فى تقويمهم تحديا ، ضمن كثير من التحديات، لتقويم الغزاة الرومانيين. ولقد كان شيخ " عزبة الاقباط " ، القريبة من قرية "قاو" هو الذى تحدى أهل قاو الكبيرة حين اشترى "جارية" مسلمة ورفض أن يستبدل بها غيرها أو يعتقها فلما ثارت القرى بقيادة الشيخ أحمد الطيب تدخلت السلطة بجيوشها وحلفائها من مسلمى القرى الاخرى

انتصارا لشيخ "عزبة الاقباط " وأبادوا سكان القرى الثائرة. ثم تأتى البداوة حين يريد نصراني التعبير بمودة عن اكباره لاحد المسلمين يقول له مرحبا " أهلا بدوىّ " .. وحين تفاخر عائلة من النصارى بعلاقتها مع عائلة من المسلمين يقولون أنهم بدوياتنا. وتترجم هذه العلاقات فى المحن والكوارث بأن يعين كل نصرانى بدويه والعكس ، كما يعين الاقارب بعضهم بعضا فى الملمات.. أنه نوع غير ملزم من التآخي ، ولعله كان يوما ما ملزما.

ملزم أو غير ملزم فان الاخاء الحضارى يوحدهم على تقاليد وعادات وقيم يرعونها فى الجوار وفى الاسفار وفى الاعياد وفى الافراح وفى الجنائز ولا يفترقون لباسا.. ولا يعرفون من أين جاءهم جميعا الايمان بأن القس فى بيعته عند مذبحها هو" المختص " بعلاج المسلم إذا ما الكلب عقره . يذهب به أهله إلى عزبة الاقباط حيث يستقبلهم قس فى بيعة غير ذات أجراس مثلها مثل المساجد غير ذات المآذن. وهناك عند المذبح يتلو القس ما شاء من كتابه بلغة غريبة على السامعين وهو يعجن بعض الدقيق فى اناء من الفخار ويصنع من العجين سبع كور صغيرة. يقدمها إلى المعقور ليبدأ منذ اليوم التالى : بلع كورة صباح كل يوم . بعدها يكون الاهل قد اكتشفوا أن الكلب غير عقور. ومع ذلك يلتمسون الشفاء كل مرة لدى القس فى بيعته بغير ريبة فى قدسية العلاج . كذلك تلتمس الامهات من النصارى حصانة أطفالهن من الموت المبكر بما يعلقنه فى رقابهم من أحجبة صاغها الصائغون من المسلمين ويزرن أضرحة أولياء الله الصالحين ويوفين لهم النذور راضيات. وتحرس النساء ، مسلمات ومسيحيات ، هذا الاخاء الحضارى المتين بما لهم من سلطة قيادية في بيوت الازواج أجمعين .

وهم جميعا عرب ولا يتساءلون ..

(٢)

حاصر الفيضان الناس فى القرية فهم لا يعملون والذين لا يعملون يلعبون . أما شيوخ القرية والكهول ذوو الولد الكثير فلايعملون لا فى وقت الفيضان ولا فى وقت التحاريق . الاولون لا يعملون وهنا والآخرون لا يعملون استغناء بما يعمل أولادهم . كل اولئك فريق واحد مرابطون أبدا على المصاطب وقوفا وقعودا وعلى جنوبهم . يضاف إليهم العاملون فى القرية. الفقهاء والخفراء والمزينون والمأذون هؤلاء شبه عاطلين . أما الاولون فعاطلون .

الشيوخ يقصون مالا نهاية له من قصص شبابهم الذي ولى . ومن قصص شبابهم أن قد استطاعوا، دون البشر أجمعين أن يسرقوا قصر عابدين . كان اثنان منهم يعملان لا يقولون فيم داخل قصر عابدين الذى هو بيت الخديوى . وتذكرا ما فعل بآبائهم فى "الغارة" فانتقموا وسرقوا منه مالم يستطع أحد فى القرية أن ينتفع به. أدوات طعام فضية سكاكين وملاعق وشوك وأكواب زجاجية. لا بأس. يكفى أنهم انتقموا من الخديوى وسرقوا بيته بالرغم من ألوف الحرس الذين يحرسون البيت. ويقسم أحدهم بجلال الله أنه رأى " باشا صغير" اسمه محمد باشا فاضل باشا، فعرف بدون أن يقول له أحد أنه ولد فاضل باشا الذى فرى أمعاء جدوده وآبائه على الخوازيق. وهم بأن يقتله بسكين فلما تمكن منه تلاشى الباشا لا يدرى كيف. فيقول مستمع عجوز: بركات الشيخ أحمد. فقد وعد الشيخ أحمد فاضل باشا بأنه أن سبق ولده عبد الرحمن إلى جوار الله سيدعوه سبحانه بالا يرى فاضل باشا مكروها فى ذريته، ولقد وفى الشيخ أحمد بوعده. وأجاب

الله دعاءه فتلاشى من امامك ابن الباشا باذن الله . و يكون ذلك ايذانا بانتقال الحديث إلى ما بعد الموت. ويختلفون فى وصف الجنة. يضيف كل منهم إلى وصفها خليطا من كل ما تمناه وحرم منه فى الحياة الدنيا. ويفتقدون أمام المسجد فيبعثون إليه من يستدعيه ، فإذا جاء أفتاهم فيما هم فيه مختلفون وفيما لم يتذكروه فلم يختلفوا فيه ، أما فتواه فيما هم فيه مختلفون فقاطعة: فيها كل ما تشتهى الانفس . كل منكم سيجد فى الجنة ما يشتهيه فقال لص عابدين : طيب يامولانا إذا اشتهيت قتل فاضل باشا. فضحكوا جميعا ساخرين حتى الامام الوقور. قال انك ولو اشتهيت لن تقتل فاضل باشا ولا الخديوى ولا عبد العال العقالى لأن كل اولئك ظالمون والنار قد اعدت للظالمين لن تجدهم فى الجنة فلن تقتلهم . وضحك الاخرون مصادقين . ويعود الحديث إلى الجنة والناس فيها والملائكة والحور والولدان.. وكيف توزع النعم على من يشتهون إذا تضاربت الشهوات .. فيفتيهم الامام فتياه الثانية. للجنة عمد يديرونها. هل يمكن أن تعيش قريتنا بغير عمدة. لا. فما بالكم بالجنة وفيها كل البشر الصالحين . عمد الجنة اختارهم الله قبل أن يخلق البشر حين اختار الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله أجمعين . فعمد الجنة هم آل البيت عمد الايمان. وأل البيت هم الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله أجمعين وذريته " الاشراف ". يضحك شيخ خبيث ويقول : " خلاص يا شريف ابقى اتوصى بينا فى الجنة علشان احنا برضه بلديات " .

وهم من قبل ومن بعد مسلمون تسليما. أنهم لا يقرأون القرآن اذ هم ، الا قلة قليلة ، اميون ، ومع ذلك يستمعون إليه من القارئين خاشعين ، وحين تتلى آية فيجهرون بلفظ الجلالة " الله " فهم يعبرون عن اعجابهم بما يصطنعه بعض القراء فى التجويد من تطريب ، ويبقى القرآن ذا قدسية مسيطرة على افئدتهم لأنه كلام الله . يتجسد ذلك التقديس حين يتجسد القرآن كتابة فى "مصحف " أو"ختمة" كما يسمون المصحف ، حينئذ يصبح المصحف هو محل التقديس فلا يمسه الا المطهرون. وترد الاستهانة بأوراقه أو اهانتها بعقاب جمعى رادع . وقد يحنث أى منهم بكل الايمان التى تتردد كثيرا فى أحاديثهم تأكيدا لما يقولون ، ولكن أحدا منهم لا يجرؤ على أن يقسم " بالمصحف الشريف " كذبا فإن أقسم أقام على ما يقول حجة صدق غير منكورة.

وهم يشهدون بأن لا اله إلا الله الواحد الاحد ولا يكادون يذكرون من صفاته، إلا أنه قادر على كل شيء سبحانه ، ولا يخطر على بال أحد فى القرية، وبالتالى لايرد فى أحادثهم سؤال أو تساؤل أو حوار أو جدل حول وجود الله . فمحال أن يتصور أحدهم ولو تصوراً أن ثمة من يلحد أو يشرك بالله . أنهم يؤمنون بالله ايمان المسلمين الاوائل . آمنوا بصدق محمد بن عبد الله ايمان معرفة حية، فآمنوا بما أبلغهم به عن الله الذى أرسله إليهم ليبلغهم . ولم يكن المسلمون الاوائل يعرفون من آيات القران الا القليل الذى انزل فى السنين الأولى للدعوة كما لا يعرف أهل القرية إلا قليلا من آياته. وإذ يؤمنون بالله الذى ليس كمثله شيء يتصورونه، ينصب تعبيرهم عن ايمانهم على شخص الرسول الذى يحبونه حبا جما، ويضفون عليه الكمال المطلق، ويذكرونه كثيرا وينسبون إليه، عليه الصلاة والسلام ، كثيرا من الخوارق والمعجزات منذ ما قبل مولده حتى وفاته. ويحتفلون بيوم مولده كما يحتفلون بعيد الفطر وعيد الاضحى وفيه يستدعون المداحين و بطاناتهم لينشدوا قصائد المديح ويلتقطون منها وقائع من السيرة النبوية كما رواها المنشدون . أما ما جمعه الامام البخارى من أحاديث منسوبة إلى الرسول فى كتابه فهم يرفعونه إلى مرتبة التقديس. فلا يقسم "بالبخارى" الا الصادقون . ومن أجل رسول الله يحبون ال بيته

ويحيطون أسماءهم واضرحتهم باجلال يرفعهم درجات فى مراتب الاحترام والتقدير. ويمتد الاحترام والاجلال إلى أولياء الله الصالحين فيزورون أضرحتهم يلتمسون وساطتهم فى قضاء الحاجات وينذرون لهم النذور.

فيما عدا ذلك لا يعرفون شيئا عن الائمة أصحاب المذاهب أو الفقهاء المجتهدين، الا اسم "أبو حنيفة النعمان " الذى يذكر، لا يعرفون لماذا، فى عقود الزواج، وإن كان أسلوب أدائهم الصلاة متفقا مع ما جاء فى مذهب الامام مالك. ومع ذلك فلهم اجتهادات تتفق مع ضرورات واقعية تمليها ظووف الحياة فى القرية خاصة ظروفها الاقتصادية.

يؤدى الشيوخ فريضة الصلاة فى مواعيدها ولا يؤديها الكهول الا قضاء مع صلاة المغرب فرادى وظهر يوم الجمعة جماعة. وتؤديها قلة من الشباب، ولا تصلى النساء إلا خفية إن كن يصلين. فقد أبى حافظو مذكرات القرية أن يجيبوا على السؤال : هل تصلى النساء؟ واستنكروه. من صيغ الاستنكار تجمعت مفردات قد تنبىء بجواب صححح محتمل الصحة إذا ما قرئت على ضوء موقف الشيوخ والكهول من الصلاة ومواقيتها. خلاصة الجواب أن الذين يؤدون الصلاة من الرجال هم الذين تتيسر لهم أسباب الوضوء وهى لا تتيسر إلا فى المسجد حيث للمسجد بئر خاصة يرفع منها الماء ليجرى فى قناة من الفخارويصب في أماكن متجاورة من فتحات ضيقة .ا فى مرحلة لاحقة (بعد الحرب العالمية الاولى) عرفت القرية المواسير والصنابير فتمكنت كل عائلة حديثة الرخاء من أن تبنى خارج منازلها "مصلى". فكثر المصلون وأصبحوا يصلون الصبح حاضراً . أما فى الغيطان فلا يأمن أى منهم الا يكون وضوء الفجر قد نقض ولايقبل حياء أن يتوضأ من ماء جارفى المصارف حتى لا تنكشف عورته أمام الجيرة أو المارة فيؤجل أداء الفروض إلى أن يتوضأ مستورا فى المسجد أو فى مصلى العائلة . و لم يرد فى مذكرات القرية سبب لعزوف أغلب الشباب عن الصلاة قبل الزواج .ا أما النساء فهن لا يصلين باجماع الذاكرين. لماذا؟ سؤال منكور لأنه قد يستتبع أسئلة لا يجوز طرحها مثل كيف وأين ومتى يكون وضوءهن، وهل تتيمم المرأة صعيدا طيبا إذا افتقدت الماء . كل ما هو شائع لمعرفة أن المرأة فى القرية تقضى حاجتها، وقضاؤها عادة، إذا جن الليل ونام الاولاد وقبل أن يعود الرجل من المنضرة فى مكان خفى من دارها ثم تغتسل. لابد لكل امرأة من أن - تغتسل مرة مساء كل يوم . ولما كان الاغتسال يكفى للطهارة اللازمة للصلاة فقد تصلى بعضهن الفروض قضاء كل ليلة، رواة ذكريات القرية يستبعدون هذا الفرض ساخرين إذ أنها حينئذ تتهيأ لاستقبال زوجها.

لا صعوبات فى الصوم، فيصوم أهل القرية جميعا شيوخا وكهولا ورجالا ونساء ويفطر بعض الشباب خفية بين المزارع خارج القرية .

ويعرفون أن الزكا ة فرض ولكنهم لا يخرجونها فقرا، وأن الحج فرض لمن استطاع إليه سبيلا ولا يحج أحد منهم إلا نادرا لأن الاستطاعة نادرة. ولا تحج النساء الا بصحبة محرم فلا تحج النساء إذ لا تتوافر الاستطاعة لاثنين من المحارم حتى لو توافرت لواحد، ويقدم الفقر الشائع تبريرا يرضى ضمائرهم فمن بين كل ما صاغه الفقهاء من أحكام لا يعرفون فيذكرون إلا أن "الضرورات تبيح المحظورات " وينطقونها بكلماتها العربية الفصيحة.

بعد كل هذا لهم معاييرفقهية تلقوها من قيمهم الموروثة وحياتهم الواقعية وعلى ضوئها يحرمون ويحللون. يجمعها جميعا الحديث الذى يقول "الدين المعاملة" يعرف أهل القرية هذا الحديث ويذكرونه كثيرا فهو دينهم ودستورهم وقانونهم . فكل ما ينكرونه من فعل أو قول فى نطاق التعامل مع الناس أو الحيوان أو الاشياء "حرام " حتى لو كان تقصيرا فى رى الزرع فى أوانه.

أما الكفر فليس الالحاد أو الشرك. إذ كلاهما، غير متصور. انما الكفر هو الظلم والكافر هو الظالم. لا ينسب إلى غيره ولا يوصف بغيره . ولما كانوا مظلومين غير ظالمين لا يخطر ببال أحدهم بأنه يستحق نار جهنم فلا يذكرونها ، ويذكرون الجنة كثيرا.

(٣)

وقد يحدث، أيام الفيضان، أن ينحط اليهم من الجبل العمدة والخفراء الاربعة وحصان حكومي يعلوه عسكري ، وقد فرش العسكرى على رأسه منديلا عريضا ثبته بطربوش أحمر يقيه الشمس الحارقة. يمشون جميعاً مشياً وئيداً كأنهم مخدرون . الحصان فى المقدمة. والعمدة وراءه.. ووراءه الخفراء..

السلام عليكم . فيهب الجميع واقفين. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

العمدة : "عاوزين شوية عيال يروحوا مع الشويش لغاية النواوره علشان الجسر انقطع على البلد هناك والميه غرقت البيوت والبيه المأمور ضرب اشارة بلم الناس علشان يسدو القطع وفرد على بلدنا ١٥ واحد و ١٥ مقطف و ٧ طوارى،، يا الله يارجاله .. " .

سخرة بدون أجر. اقامة بدون ايواء. أيام بدون غذاء وينشط الشيوخ فى اقناع الكهول بتقديم ما يكفي الحكومة من أولادهم الشباب. فإذا جمعوهم ممن لم يستطيعوا الهرب ، ربطوا أيديهم جميعاً بحبل واحد فأصبحوا صفاً مربوطاً فى سرج الحصان، يجرهم العسكري بحصانه نحو ستة كيلو مترات إلى النواورة حاملين مقاطفهم و "طواريهم " (فئوسهم) بددن تساؤل، بدون اعتراض. بدون كلام . ولكن بشعور صامت عميق بالقهر والمذلة.

وينصرف العمدة ليبلغ المركز بأن " كله تمام يافندم " .

الخفراء فقط يتهامسون ويتذمرون . وقد يحتجون بعد أن يكون العمدة قد انصرف. إذ الخفراء في القرية هم "المثقفون " . ويعلمون من أمر الحكومة والمأمور والعمدة ما لا يعلم الآخرون . انهم الفتية الساهرون على حماية قريتهم، حملة السلاح القاتل المرخص لهم باستعماله، ضابطو الجرائم، طابخو التحقيقات الاولية على ما يتفق مع قبر الفتن بين عائلات القرية، طبيخاً لا يملك ممثل السلطة الذى لن يأتي الا بعد ساعات إلا أن يأكله ويهضمه. ثم أنهم وسطاء الرشاوى ، وهم شهداء الحق أو الزور حسب مقتضيات الأمور، وهم موردو "الفتيات " يشتغلن خادمات في منزل المأمور ومن هم دونه من موظفي المركز . وهم الذين يستقبلون الفتيات الهاربات العائدات إلى القرية فيعلمون منهن ماجرى من المأمور ومن هم دون المأمور

يوصوهن بالكتمان خوفاً من العار ويحولون دون عودتهن بالرغم من الحاح المأمور وتهديده لأنهم - باختصار- لا يعرفون إلى أين هربن مادمن لم يعدن الى القرية .

ثم أن الخفراء يعلمون من أمر القانون مالا يعلمه المشايخ وبعض العمد أنفسهم . يرشحهم العمدة من أفضل فتية العائلات ، أقدر العائلات على الوفاء بتكلفة الترشيح . فيذهب الخفير المرشح إلى المديرية للتدريب شهراً ، ويبدأ فى التحول أو التطور بمجرد وجوده فى المدينة، ففى معسكر التدريب تنتزع منه ملابسه ، ويعرض على اطباء يفحصونه ويفرض عليه أن يغتسل بماء ساخن وصابون. ثم يكتسي – مجاناً - ملابس" فانلة " لا تحك جلده، وفوقها قميص من نسيج القطن الرقيق ثم فوقها بدلة. أى والله بدلة. صحيح أنها بدلة من نسيج أسود ثقيل، ولكنها على أى حال بدلة : " زكتة ومنطلون ". يضم " الزكتة " إلى وسطه حزام من الجلد عريض تضم طرفيه كتلة مسطحة من النحاس اللامع. ثم الشراب أهم الغرائب. يدس فيه قدميه قبل أن يدسهما فى حذاء ذى رقبة من الجلد الاسود السميك.

وأخيرا تنتزع " اللبدة " من رأسه ومعها " الشملة ".

و"اللبدة" غطاء للرأس من اللباد الابيض، اللباد من الصوف. يدعك الصوف المندوف بمعجون الصابون مرة ثم يجف ثم مرة ثم مرات إلى أن يتماسك ويصبح ذا صلابة. يشكل كوعاء شبه قمعى مصقول ، يلبس مقلوبا على الرأس فيحتوي قمتها فإذا به مادة وصورة ومكاناً نموذج من تاج ملوك الصعيد الذى لا تزال صورهم تحمله على جدر المعابد منذ ما قبل توحيد القطرين على يد ملك الصعيد الملك "العقرب " قبل أن يتم الوحدة خليفته الملك "عرمر" المسمى "منا" فيضيف إلى تاجه لفافة مجدولة من نبات أحمر قيل أنها كانت قبل الوحدة تاجا لملك الشمال ثم اندثرت وبقيت "الطاقية" على رأس الشماليين حتى اليوم .

منذ الفتح العربي حلت محل اللفافة الحمراء المندثرة لفافة من نسيج أبيض لم يكن الفاتحون العرب يعرفون غيرها غطاءً للرأس واسميت " شملة"، ربما اشتقاقاً من الشمائل المميزة وأصبح اسم هذا التكوين من عناصر ذوات منابع حضارية قديمة " العمامة" أو كما ينطقها الصعايدة "عمة". وهى عربية الاصل .

" واللبدة بشملتها" ليست مجرد غطاء للرأس عند أهل الصعيد. إنها تحمل بقايا ما كانت ترمز إليه يوم أن كانت اللبدة البيضاء تاجا لملوك الصعيد. وكانت الشملة علامة الانتماء إلى الفاتحين المنتصرين. فلا يضعها على رأسه من جميع سكان الكرة الارضية بما فيها مصر إلا الصعايدة (قبلي) ابتداء من أسيوط حتى وادي حلفا جنوبا. ولا يحملها على رأسه إلا الرجال البالغون. وتبقى على رأسه إلى أن يموت أو أن تبلى فتستبدل بها لبدة وشملة جديدتان. وقد يموت الصعيدي فى معركة بالشوم فلا عيب ولا عار، أما أن تسقط عمامته وينكشف رأسه فذلك هو العار لأن سقوطها علامة الهزيمة تماماً كما كانت فى صراع الملوك فى مصر القديمة.

لا يعرف أهل القرية لاكل هذا ولا شيئا منه انما يعرفون أن "اللبدة بشملتها" علامة الرجولة. فهم لا يخلعونها عن رؤوسهم لا صيفا ولا شتاء. فإن خلعت سهواً أو أثناء النوم- يصيب الرأس العارية صداع أليم . قد يكون تعبيراً لا شعوريا عن رفض ما يرمز إليه غيابها،

وقد يكون أثراً حقيقياً لغياب وظيفتها الصحية . ففيما بين اللبدة، أى لبدة، والرأس، أى رأس، قدر من الفراغ يحول سمك اللبدة دون أن يتأثر بتقلبات الحرارة خارجها فتبقى الرأس محصنة فى "مناخ " ثابت الحرارة على مدى الشتاء والصيف وفى كل الاوقات، كأن اللبدة جهاز تكييف. ثم أن هذا الفراغ يمتص قدراً من عنف ضربة الرأس بالشوم خلال المعارك أو التحطيب، فتنجو الجماجم .

فلا يكون هيناً على الخفير أن تنترع اللبدة البيضاءعن رأسه فى أول عهده بالتدريب .. ولن يغنيه عنها ما يستبدلونه بها. لبدة سوداء طويلة قائمة الجوانب حين يكمل زيه الرسمي خفيراً حيث تنبىء زينة اللبدة عن رتبته . إذ يزينها من أمام شريط عريض رأسي من نسيج ملون تتوسطه لوحة مستديرة من النحاس . فى اللوحة رقم مفرغ هو رقم ذلك الخفير. أما الشريط فإن كان أخضر اللون فهو خفير، وإن كان جامعاً الاحمر والاخضر طوليا فهو وكيل شيخ خفراء، وأن كان أحمر فهو"شيخ خفراء" وهى مرتبة لا تتاح الا فى القرى الكبيرة. وليست القرية كبيرة.

كبيرة أو صغيرة، فستدخر اللبدة الرسمية للمواقف الرسمية، وسيعود الخفير فور انتهاء التدريب إلى اللبدة البيضاء بعد أن يكون قد تغير ثم تطور خلال فترة التدريب فأصبح واحدا من مثقفي القرية.

يبدأ التطوير فى التطور تباعاً .

يعلمونهم ثم يدربونهم على الخطوة العسكرية، وهى خطوة مريحة. ثم المشي صفوفاً منتظمة، ثم الجرى على ايقاع معلوم من الشهيق والزفير. ويعلمونهم ثم يدربونهم على أن الغذاء ليس صدفة تهتبل كلما كانت متاحة كما تعلموا فى قراهم ولكنها ثلاث وجبات منتقاة النوع مضبوطة المقادير يتناولونها جالسين إلى المناضد من أوعية مصقولة ويشرب كل منهم من كوب خاص . ولا يحتفظون فى أفواههم برائحة اللحم وطعمه كما كانوا يفعلون بل ويختمون وجبة الغذاء "بالحلو". قدم إليهم مرة إناء ملىء بسائل تعوم فيه مكعبات صفراء لكل أربعة وعاء. وقيل لهم: "الحلو". فقال خفير لخفيروهو يتأمل الوعاء بحذر: ايه ده؟.. قال الاخير متحيرا : " الله أعلم لكن يمكن شمام افرنجي " لم يسمعو اسم الاناناس قط . ولم يكونوا يعرفون أن من فاكهة الارض البرقوق والكمثرى إلا بعد أن اختيروا للتدريب فذهبوا إلى أسيوط . ذات العمائر التى ترتفع أربعة طوابق. يتأملها أحمد عبد الرحيم فيقول : " دي من علامات الساعة يابوى". ! ثم أنهم فى معسكر تدريبهم يخالطون الضباط المدربين حتى الانجليز منهم بدون طقوس الولاء.. عالم جديد غريب..

أغرب منه على الافئدة المتحجرة ما يلقى عليهم من دروس هناك يعرف ابن القرية لأول مرة أن ثمة ما يسمى قانون، ويحيط بالخصائص العامة للقانون، ويعرف أن الجريمة أنواع : المخالفات والجنح والجنايات . ويعرف أساليب التجسس التى يسمونها تحريات. ويعرف أن العمدة ليس إلا خفيرا كبيرا. وأنه هو الخفير المكلف بمنع الجرائم وضبط الجناة . ويتعلم الخفراء مالا يعلمه أحد لضباط الشرطة. نظام الري ومواعيده، وشيئاً عن حق الملكية ووضع اليد والحيازة، ليحيطوا، إذا ما صادفوا مشاجرة، بمن الضحايا ومن الجناة ، بل يعلمونهم أسماء أنواع معينة من الطيور هم مكلفون بمنع صيدها لأنها "صديقة الفلاح ".

ويحفظون أسماءها صما كما جاءت فى كتب التدريب ولا يعرفون من أشكالها إلا القليل. الثغرة فى كل هذا العالم المتقدم الذى يعيشه الخفير خلال شهر التدريب، أنهم لا يعلمون الخفيرولا يشترطون فيه معرفة القراءة والكتابة. فيلقنونهم الدروس تلقينا ويستمعون إليهم وهم يعيدونها ألفاظا، ولا يتحقق أحد مما إذا كانوا لها مدركين..

- اذكر أسماء الطيور المحرم صيدها؟

- القنبرة، أبو فصادة، الكروان عصفور يغنى، عصفور سقسيكولا، عصفور أكل الذباب، عصفور يبيت، الوروار، أبو قردان، الهدهد، زقزاق مطوق، زقزاق بلدي ، زقزاق شامي، وأبو الصفير يافندم .

وستلفظ الذاكرة كل هذا بعد أشهر من العودة خفيرا.

وكيف يتذكر أي انسان طيراً إذا رآه وهو لم يره من قبل حتى لو كان اسمه السقسيكولا . وسيعودون الى قراهم بثلاثة مكاسب جديدة : استعمال السلاح والمحافظة عليه . فكرة القانون . مائة وخمسين قرشاً مرتباً شهرياً أي ما يساوي عائد خمسة أفدنة .

فهم يتهامسون حين يرون أخوة لهم في القرية يجرون جراً مربوطين بحبل إلى ذيل حصان لرد الماء عن منازل " النواورة " تسخيراً بدون أجر ، وإقامة بدون مأوى ، وأياماً بدون غذاء ، ويكادون يحتجون لولا ان " المائة وخمسين قرشاً " تردهم الى الخضوع لما يكرهون ..

ويبارك الشيوخ تلك الردة ويمتدحون " عقل " الخفراء الشباب . يعبر عنهم الامام فيذكر الجميع بأن طاعة أولي الأمر فرض من فروض الإسلام . قال تعالى في كتابه : " اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " .. وهو جل جلاله الذي شاء أن يولي الحاكمين أمر المحكومين . فهو الذي قال في كتابه العزيز : " يعز من يشاء ويذل من يشاء " .... يقول هذا وهو الذي لم يسمع قط عن الفيلسوف الأغريقي القديم الذى يسمونه "المعلم الأول " القائل فى زمانه " ان الطبيعة ذاتها ومن أجل حفظ النوع، قد خلقت رجالا ليحكموا ورجالا ليطيعوا وأنها هى التي جعلت من حق العقلاء والحكماء أن يكونوا سادة وأن يكون القادرون جسمانيا على تنفيذ ما يصدر لهم من أوامر عبيدا. ولم يكن ينقص ارسطو ليكون فى مثل حكمة الشيخ أحمد معتوق إلا أن يقول "القادرون جسمانيا على سد خرق البحر لحماية قرية النواورة من الغرق . " .

ويسأل أحد الحاضرين مجلس الافتاء..

ياعم الشيخ أحمد. لقد وقفتم للعمدة لأنه ألقى السلام ولكن العسكري لم يلق السلام ولم ينزل حتى عن ظهر الحصان، "فنفرض " أن العمدة لم يكن موجودا هل يجوز شرعا أن نقف للعسكري وهو لم يلق السلام . فيقول المفتي شبه غاضب : " ياولدى الله يهديك .. الوقوف يكون واجبا عند مقدم ولي الأمر أو أتباعه أو مرورهم على مجلس المسلمين، والعمدة من أولياء الأمر والعسكري من أوليائه حتى الحصان تابع لولي الأمر.. ويعني " حتخصر ايه لما توقف " ..

فضحك شيخ آخر وقال يعنى يامولانا لوفات علينا حصان الحكومة من غير عسكري "برضه نقف " .. ضحك الاخرون إلا الامام الذى قال بحدة : طبعا. لماذا تتضاحكون وأنتم

شيوخ. انت ياشيخ حنفي "ياللى ضحكت ". الم تذهب إلى أسيوط . "رحت " . " طيب لما رحت ما شفتش ناس أسيوط المديرية، الناس المتعلمين، ماذا يفعلون حين يمر من أمامهم "جحش " عبد الرحمن النميس عمدة أسيوط . يصمتون . فيسأل الامام ألا يقف أهل اسيوط اذا مر حمار النميس ولو لم يكن العمدة راكبه. أى والله. طيب اتقوا الله والسلام عليكم ورحمة الله قد آن أوان الآذان لصلاة العصر.. فيتفرقون....

(٤)

بعد صلاة العصر يكون الملل قد بلغ غايته، فيتنادى شيوخ القرية والكهول ذوو الولد الكثير الذين لا يعملون إلى لعب "السيجة" و"السيجة" لعبة يتبارى فيها فردان، يظاهر كل واحد منهما أعوان يشيرون عليه ويرشدونه و يهللون لانتصارهم إذا انتصر، ويعيرونه بالهزيمة إذا انهزم . وهى بعد لعبة ذكاء وتربية .

يتحلق منهم الكثير جلوسا على الأرض حول وسادة مربعة من التراب الناعم . تحفر فيها حفرا هينا مواقع متجاورة سبعة طولا وسبعة عرضا لتنتهى إلى تسعة وأربعين موقعا يسمونها "عيونا". يجمع أحد الفريقين قطعا صغيرة من الحجر فيجمع الفريق الآخر قطعا صغيرة من الآجر ليكون اختلاف اللونين مميزا لما أعد كل فريق . تسمى تلك القطع "كلابا ". العين الوسطى من مربع السيجة تترك فارغة. ثم تبدأ المباراة بأن يضع أحد المتبارين قطعتين كلبين فى عينين يختارهما. ويليه الثاني بقطعتين فى عينين . وهكذا حتى تأخذ الكلاب أماكنها فى العيون فتملأها إلا العين الوسطى ومنها تبدأ "الغارة". يغير أولا من لم يكن له امتياز اختيار موضع كلابه أولا. والكلب لا يتحرك إلا إلى عين فارغة طوليا أو عرضيا فتكون البداية بالضرورة انتقال كلب إلى العين الوسطى مخليا مكانه لينتقل إليه كلب غريمه. ولا تلبث عيون أخرى كثيرة أن تخلو. ذلك لأن أية حركة تؤدى إلى أن يصبح " كلب " الخصم محصوراً بين كلبين تعني أن الكلب المحاصر قد " مات " فيلقى خارج رقعة السيجة وبالتالي يخلو مكانه فتزداد فرص المناورة . ويكون مناط المهارة فالتفوق فالانتصار هو إماته أغلب كلاب الخصم واخراجها من الرقعة الميدان عن طريق محاصرتها بالتحكم في سير اللعب . ولكل لاعب استطاع بحركة أن يميت كلباً ويخرجه أن يستمر في اللعب بشرط أن يكون ذلك حصاراً جديداً لكلب جديد . وهكذا يستطيع اللاعب الماهر أن يحاصر كلباً إثر كلب إلى أن يفتك بخصمه أو بكلاب خصمه .

كل كلاب السيجة متساوية في مقدرتها على الحركة واتجاهها . وفي هذا تختلف السيجة عن الشطرنج . ولكن أية قطعة في السيجة لا تنقل إلا نقلة واحدة الى عين خالية مجاورة لها على المحور الطولي أو المحور العرضي . لا تنحرف . وفي هذا تختلف السيجة أيضاً عن الشطرنج .

الخلاف في هذين الوجهين يوهم بأن السيجة أبسط من الشطرنج وأقل اقتضاء للجهد الذهني . الأمر كذلك بوجه عام . ومع ذلك فإن السيجة ليست بسيطة . وهي تحتاج الى جهد ذهني مضاعف لأنها تتضمن مرحلة من الصراع لا يتضمنها الشطرنج .

فى الشطرنج يبدأ الهجوم أو يبدأ اللعب، والقطع كلها فى مواقع ثابتة متينة سلفا يعلمها الطرفان. وهى مواقع مفروضة على الطرفين . ويفتح مجال المهارة فى الشطرنج ببداية اللعب،

وتدور المهارة على خطط نشيطة هجومية أو دفاعية. الامر فى السيجة مختلف. ففيها يبدأ الصراع والرقعة خالية. ويكون لكل لاعب وعليه أن يختار المواقع التى ستساعد خطط الهجوم أو الدفاع المتوقعة. ويدخل فى الاختيار توقع خطط الخصم من رصد وتحليل المواقع التي يختارها. وقد يختار لاعب مواقع لنصف ما لديه من احجار منتقيا لكل حجر موقعا يرشحه لمعركة معينة ضمن خطة هجوم يعد لها مقدماً ، فيفطن الطرف الآخر للخطة ويتصور الأماكن التى ستكون معرضة للحصار فيتجنب وضع أحجاره فيها أو يسد الطريق إليها ثم يختار المواقع التى تفشل خطة خصمه، وكثيرا ما يؤدي هذا إلى انهاء الجولة بالتسليم قبل تبدأ المعارك حين يفطن واحد إلى أن كل الخطط التكتيكية لنشر قواته على مسرح المعركة قد أصبحت فاشلة في تحقيق الهدف الاستراتيجي فيقبل الهزيمة وهو بعد في مرحلة الحشد والتعبئة .

فإذا عرفنا أن النشاط الحربي يتم على مرحلتين ، مرحلة تعبئة القوات وانتشارها على أرض المعركة ، ومرحلة الالتحام والمناورة في ميدان القتال ، يمكن أن نقول أن السيجة هي في الأساس مباراة في مهارة تعبئة القوات وانتشارها على أرض المعركة واحتلال المواقع التكتيكية على ضوء استطلاع ما يقوم به الخصم من تعبئة لقواته ومواقع انتشارها . ولا يكون اللعب بعد ذلك إلا محكاً للمباراة الاساسية ليعرف كل واحد ما إذا كان منتصراً أو منهزماً فيها . وإن كان هذا لا يمنع أن مهارة قيادة المعركة قد تعوض القصور في الاعداد لها فتحوّل الهزيمة التعبوية الى نصر قتالي .

أما الشطرنج فهو في الأساس مباراة في إدارة المعارك القتالية انطلاقاً من مواقع وقوات متكافئة . وقد يمكن القول أن " السيجة " مران ذهني على " حرب العصابات " في حين ان الشطرنج مران ذهني على الحرب النظامية في أسلوبها القديم حيث تواجه الجيوش بعضها بعضاً قبل أن تسقط الفروسية ويؤدى الجبن إلى أن يضغط " معتوه " على زرار فى طائرة فيقتل ٧٥٠٠٠٠ انسان فى ومضة قنبلة ذرية كما حدث فى هيروشيما . ويقول غير أهل القرى لقد كانت تلك حربا مشروعة وهي عند أهل القرى لا أخلاقية .

الذى لا شك فيه أن السيجة لعبة ديموقراطية ومران عليها وأن الشطرنج لعبة ارستقراطية وممارسة لها، ليس مرجع هذا إلى أن السيجة يلعبها الفلاحون بقطع من طوب أو حجر على رقعة من تراب وهم جلوس على الأرض، بينما يتفنن لاعبو الشطرنج فى اختيار رقعته وقطعه من بين أنواع الخشب الثمين أو العاج وهم جلوس على المقاعد المريحة، لا. إنما تبرز ديموقراطية السيجة وارستقراطية الشطرنج من قواعد اللعبة ذاتها. ففى السيجة تتساوى كل القطع فى القيمة وفى مجال الحركة. إذ كلها أحجار أو طوب أو كلاب . أما فى الشطرنج، فثمة الملك والوزير والفارس والطابية والفيل ثم أخيرا الجند الذين يرصونهم أمام الارستقراطيين وفرسانهم وطوابيهم وأفيالهم ليتلقوا عنهم مخاطر القتال المبكر، ويتمتع الملك بامتياز الحركة إلى أى اتجاه ولو هربا.

ويتمتع وزيره بامتياز الحركة إلى أي اتجاه وإلى أي مدى ولو منحرفاً وتزداد قيود " الانضباط " على حركة كل قطعة كلما نزل مستواها الاجتماعي إلى تفرض على الجندي حركة واحدة ويحرم من التراجع ولو دفاعاً عن نفسه .

ليس هذا كل الخلاف ..

أكثر منه دلالة على ديمقراطية السيجة وارستقراطية الشطرنج أن كل القوى في الشطرنج مسخرة لحماية الملك . ولا يهزم لاعب إلا إذا مات ملكه حتى لو كان قد فقد كل جنده وخيله وطوابيه . النصر والهزيمة في الشطرنج مرتبطان بوجود الملك او عدمه . ولكي تكتمل طقوس النفاق الارستقراطي لا يجوز " قتل " الملك إلا بعد تنبيه جلالته إلى الخطر : كش . لعل جلالته أو أحد رعاياه أن يجد له مخرجاً أو يفديه . أما كل من هم غير الملك ، بمن فيهم الوزير ، فيموتون اغتيالاً . أما في السيجة فكل القطع يساند بعضها بعضاً وتتعرض كل قطعة للمخاطر ذاتها التي تتعرض لها القطع الأخرى . وتحل كل قطعة محل أية قطعة اخرى في إداء وظيفتها . ومن يمت يفتدي من يعيش . ثم لا ينهزم إلا من يفقد "أغلبية" قواته وحكم الاغلبية قائم على أساس المساواة بين البشر ، وإذا انعدمت المساواة فلا يبقى من الديموقراطية إلا كلمة ساخرة من عقول مسخرة لاستبداد الذين يعشقون الكلمات الفارغة من الليبراليين، الذين يتحدثون كثيراً عن الديموقراطية ولا بأس بعد ذلك من توزيع السلطات على الصفوة من الاقلية المتحكمة من ملوك ووزراء وفرسان وأفيال وطوابى لأنهم ، كما يزعمون ، " يمثلون " الاغلبية وينوبون عنها لأن : "أغلبية مواطنينا لا تتوافر لهم من المعرفة والوقت ما يلزم ليريدوا أن يقرروا بأنفسهم فى المسائل العامة وبالتالى فإن رأيهم هو أن ينيبوا عنهم من هم أقدر منهم بكثير فى اتخاذ القرارات كما قال استاذ النفاق وفيلسوف الاستبداد فى كل العصور، البارون وراثة عن أبيه، البارون وراثة عن عمه شارل لوى مونتسكيو.

السيجة تربى الناس منذ الصغر على المساواة بين البشر ، كذلك يفعل أهل القرية. يدربون أولادهم على سيجة صغيرة من تسع عيون. ثم يلحقون الصبية منهم مدرسة المساواة سيجة من خمس وعشرين عينا. فإذا أضيف إلى تلك المدرسة التربوية ممارسة المساواة التى تفرضها الوحدة في النسب ، والوحدة في الفقر والوحدة في الموطن فلا يكون خطأ أن يقال أن المساواة قيمة أصيلة من قيم القرية .

كيف تكون المساواة قيمة أصيلة من قيم القرية ، وشباب القرية يجرون كا لبهائم مربوطين في ذيل حصان يمتطيه عسكري ولا يقاومون ، ويرتضون أن يقفوا تأدباً إذا مر عليهم حصان حكومة لا يمتطيه عسكري ؟ - أنه القهر منذ " الغارة " يوم أن استنكروا المنكر بدون خلاف فأنكرت السلطة عليهم استنكارهم . وقاوموا انتهاك الحرمات فانتهكت حرماتهم . دمرت بيوتهم وشردت نساؤهم وأطفالهم حتى النيل الأبيض وكردفان في السودان . ونهبت أموالهم لتضاف إلى ثراء الناهبين ، ورفع جدودهم على الخوازيق قتلا شر قتلة وقدمت جثثهم للكلاب .. وما زال العائدون مقهورين حتى دخل في نسيج حياتهم فأصبح كل منهم انساناً مقهوراً . وحينما يقهر الانسان حتى يتحول إلى انسان مقهور يتسق فكراً وإرادة وسلوكاً مع " حالته " فلا يشعر بالقهر إلا إذا نبه إليه تنبيهاً قوياً ، حينئذ يجزع من انكار ذاته فيتملص من محاولة تغييرها فلا يبقى أمامه إلا أن يتجنب المنبهات . ولقد كانت الحكومة أقوى المنبهات إلى التناقض بين قيمة المساواة ومقام المقهورين فالغوا من حياتهم فعليا وعقليا ونفسيا وسلوكا أية قرابة بينهم وبين " الحكومة". لا قرابة عداء، ولا قرابة ولاء، ولا قرابة انتماء، ولا قرابة رجاء. فاستقامت حياتهم على وثيق المساواة فيما بينهم وعوضوا حاجتهم الدفينة إلى العزة بأن أضافوا إلى أبطالهم

الشعبيين القدامى من بنى هلال، أبطالا معاصرين هم اولئك الاولاد "الجدعان " الذين يتحدون الحكومة وتطاردهم السلطة فلا تصل إليهم فى مخابئهم الاسطورية. اولئك الذين تغني لهم فتيات القرية، ويرسل إليهم الرجال الاموال القليلة خفية، ويحلم كل ناشىء بالانضمام إليهم، ويدعي بعض الشباب أنهم أصدقاؤهم . أولئك الذين تسميهم السلطة من "غيظها" الاشقياء أو المطاريد، خاصة بطلهم الخرافى سند عثمان . أنهم نماذج الانسان الذى يفتقده فى ذاته كل انسان فى القرية فينتمى إليه تعويضا عما انتقصه القهر من انسانيته. ومازال ذاك التعويض الذاتي يتراكم حتى أصبح أهل القرية لا يبالون بما يلقونه من قهر الحكومة ، ويبررون السلبية بما أفتى الامام .

ولكن يعودون كما قال علي باشا مبارك حين قال " ذهبت بهجتهم وقلت أموالهم وظهرت عليهم الكآبة والفاقة منذئذ " . منذ الغارة .

(٥)

الرجال لا يعملون بعد ان طغى النهر على ميادين العمل إلا غزل الصوف بمثل المغازل المحفورة على جدر معابد الفراعنة . وفتل الحبال من ليف النخيل ، أو " ضفر " المقاطف من سعفه . ويتحلق المقامرون منهم حول " الكحريته " . يعدون منحدراً على الرمال ، يدفعون على التوالي ، بالبيض " النيء " دفعاً رقيقاً لا يحطمه وهو " يتحكرت " هابطاً ليصيب بيضاً سبق أن تدحرج واستقر اصابة رقيقة أو يخيب . إن أصاب فقد كسب صاحب البيضة كل ما تراكم في أسفل " الكحريتة " من بيض خائب فيما يشبه الى حد كبير لعبة " البلياردو " . أما الشباب ففي الرهبات يلعبون " القلاوى " التي يسميها أهل المدن "التحطيب "ويشوهونها فيحيلونها رقصا على المسارح .. وما هى كذلك ..

التحطيب نزال جاد بالعصى الصلبة من "الشوم " يباح فيها الضرب حتى الموت ولا ثأر. مثلها مثل المبارزة بالسيوف رياضة الفروسية فى بعض عصور أوروبا، ولأن التحطيب رياضة عنيفة فإن الكبار يدربون عليها الصغار، ولكن لا يمارسها من الكبار أنفسهم إلا من يقدر على ممارستها وهم قليل .. أنها رياضة الرجولة والشباب.

وللتحطيب تقاليد وقواعد واداب ..

أول تقاليدها هو المدخل إليها حين تكون المباراة " رسمية ". وهي تكون كذلك إذا ما دخلت طقوس الافراح أو انعقدت حلباتها فى موالد أولياء الله . نأخذها رسمية فى أحد أفراح القرية حيث تكون مقصورة على أهلها، ينعقد السامر فى " الرهبة " ويبدأ الطبل دقاته فيندفع من بين الرجال إلى الحلبة من يريد أن يبارى حاملا عصاه . لا تزيد على متر ونصف طولا. يندفع إلى حيث يقف حامل الطبل متصنعا الهجوم .

وقبل ان يدركه يقف ويقول " سو " . لا يقف على معنى قول " سو " غير القادرين على فهم لغة الفراعنة الرمزية المحفورة على جدران المعابد . أما القادرون فقد يعرفون أن " سو " هو الصوت المنطوق لكلمة " سوت " اسم نبات الحلفا الذي كان رمزاً لأهل الصعيد في حروب غزوهم المنتصرة للوجه البحري الذي اتخذه أهله من " النحلة " رمزاً ، فكأن معارك التحطيب تبدأ بأن يعلن كل من المتبارين أنه " صعيدي " فسينتصر . ولا حد ولا حصر لما تنقله سفينة

التاريخ عبر القرون . يرد حامل الطبل " سو " . ويدق على طبله ايقاعاً راقصاً . فيرقص حامل العصا بعصاه رقصة رصينة لا يتحرك فيها إلا قدماه وهو يستعرض في حركات عصاه مهارة تحكمه فيها . ولا يجوز - - طبقاً للتقاليد – أن تزيد فترة الرقص على دقيقة وإلا كان الرجل " رقاصاً " . وهو في القرية عيب . فإذا انتهى انبرى له من يقبل التحدي . يكرر ما فعله المتحدي . حتى إذا ما فرغ من رقصة الافتتاح وقف كل منهما يواجه الآخر على محيط دائرة السامر متقابلين . وقف ساكناً وعصاه مدلاة يلامس طرفها الأرض . ويدق الطبل دقة قوية ايذانا بالقتال وتنطلق بعض الزغاريد من نسوة يحطن بالسامر يشاركن، من وراء ظهور الرجال، فى الفرح بمباراة قد يقتل فيها رجل رجلاً آخر. يرفع كل منهما عصاه رأسيا مادا بها ذراعه إلى أقصاه ويبدآن فى الدوران على محيط دائرة السامر مشيا لى الخلف ثم تزيد سرعة دورانهما حتى تكاد تكون جريا. وفى لحظة خاطفة يندفعان إلى مركز الحلبة ليلتحما ويبدأ الاستعمال "الحر" لعصى الشوم.

وهو حر بمعنى أن لكل لاعب أن ينال من منافسه ضربا في أى موضع من جسمه. وأن يحتال إلى ذلك بأية وسيلة. ولمنافسه أن يصد الضربة بعصاه وأن يردها كيف استطاع، ليس فى صراع التحطيب "حركات " مرسومة مقدما. انما هو نزال جاد لا يفرض على المهارة قيودا. غير أن هذه الحرية ذاتها قد حددت لمن يريد أن ينتصر قواعد الحركة هجوما ودفاعا، بأن حددت تلك المواضع من الجسم التى يجب أن يستهدفها اللاعب حتى ينتصر، وتلك المواضع التي لا ينبغي له ان يحاول لمسها ولو كانت مكشوفة أو حتى لو كشفها له الخصم عامداً وإلا خسر ..

الرأس هي الهدف الأول للضرب . لا لأن تلك قاعدة ملزمة من قواعد التحطيب ولكن لأن ضرب الرأس يؤدي إلى سقوط صاحبها وإنهاء المعركة لحساب الذي ضرب في المعارك الحقيقية . والتحطيب تدريب على المعارك الحقيقية . من هنا كانت الرأس أولى بالهجوم وأولى بالدفاع . وكان الهجوم عليها والدفاع عنها هو المحور الذي تدور عليه وتدور حوله مناورات المتبارين . وإذ تحتل الرأس موضعها العالي شكلاً وموضوعاً تصبح رعونة من أي لاعب المغامرة بضرب جاني الجسم . ذلك لأنه حينئذ يخفض طرف عصاه إلى حيث الموضع المكشوف فتنكشف رأسه ويكون من الخاسرين . الضربات الممكنة مع الاحتفاظ بالعصا درعاً أفقياً أمام الرأس تحميها تكون بطرف العصا تحت الابط . وتبلغ المهارة قمتها حين تخرق القاعدة بدون ان تتلقى الجزاء . إنها " الشطارة " المعترف بها في كل الميادين . وتكون في التحطيب بأن يكشف اللاعب رأسه مرة أو مرات متحدياً غريمه وهو واثق أن عصاه ستأخذ موقعها الدفاعي قبل أن ينقض على رأسه طرف عصا الغريم . ولا يغامر اللاعبون بمثل هذا التحدى الا القليل...

الى هنا تبدو المباراة مملة. يستطيع أن يمارسها لاعبان ثابتان على الأرض يتبادلان ضرب العصا بالعصا آمنين ، هكذا تبدو مملة على أيدى "الرقاصين " المحدثين ذوى الجلابيب المخططة على المسارح . ولا هكذا التحطيب . ذلك لأن القانون الأساسي للتحطيب أنها مباراة هجومية. من يقبل مباراة التحطيب ، ثم يختار موقع الدفاع محتميا بعصا يخسر، وعلامة خسرانه أن يتقدم إليه واحد من الحاضرين قائلا "سو" ويأخذ منه العصا ليكمل المباراة . على الطرفين اللاعبين إذن أن يلتزما الهجوم وهنا المتعة الحقيقية التى لا يحيط بها وصف. فقلما توجد رياضة

يكون المتبارون فيها مهاجمين دائما ماعدا "الجودو" حيث الكف عن الهجوم هزيمة، إن أقل ما يتطلبه هذا أن يكون موقف الدفاع مقدمة لازمة لهجوم مرسوم . وفى محاولة التوفيق بين لزوم الهجوم دائما ولحظات الدفاع العابرة يكمن سر التفوق بين المتبارين . فى المعارك الحقيقية بعصى الشوم يعتبر التراجع ولو دفاعاً هزيمة وعاراً والتحطيب مران على المعارك . وقد يجد اللاعبان نفسيهما في موقف هجوم متكافئين . طرف عصا كل منهما يواجه موضعاً مكشوفاً من جسم الآخر بحيث عن ضربه . ضربة . حينئذ لا ينبغي ان يضرب أحد أحداً . لأن التحطيب كما لايقبل الدفاع لا يقبل التعادل . لا بد من النصر الواضح وهو صعب المنال إلا للماهرين .

وينال الماهرون النصر بالمناورات البارعة التي يشترك في ادائها الجسم بكل اعضائه والعصا بكل حركاتها . الجسم يدور بطيئاً أو سريعاً ، يتقدم ويرتد ويلف ويقفز ويلتحم ويبتعد تصاحبه العصا التي يكون عليها أن تتسق حركة مع حركات الجسم ومناوراته ، فهي تلف وتدور وتعلو وتهبط وتهاجم وتدافع في مناورات توهم الخصم بالضرب وليس الضرب غايتها بل غايتها أن تتحكم في حركات الخصم وعصاه وهو يتابعها وتستدرجه الى مواقع ومواضع تبدو من جسمه فيها ثغرة فتكون الضربة المقصودة التي تنتهي بها جولة لتبدأ جولة جديدة من الموقفين الأولين .

وكما يكون الدرس الأول للاعبي الكرة الانتباه "للكرة "وليس للاعب ، ويفقد جزءاً من عظام رأسه من يركز انتباهه على من ينازله فى التحطيب. إن الاصابة تأتي من " طرف " عصا الخصم. ذلك الطرف الذى لا يثبت فى موضع واحد ولا يتحرك س اتجاه واحد، والذى يستطيع اللاعب الماهر أن يضفي على حركته سرعة تعز على المتابعة أو حتى على الرؤية. لو تصورنا "طرف " العصا كرة سحرية تحركها قوة خفية منطلقة إلى الارتطام بالرأس من أى اتجاه وكل اتجاه بسرعة كونية وعلى اللاعب أن يردها عنه بعصا يحملها فذلك هو التحطيب. إذ على كل لاعب منذ " سو" أن يعدم السامر والخصم على الطريقة " الوجودية " وأن يشد عينيه وأعصابه الى طرف عصا خصمه فى حركاتها وليس إلى العصا ذاتها. عليه أن يلصق بصره به فى أي موضع كان وأن يستجيب كل أعضاء جسمه وحركة عصاه استجابة طليقة الرؤية لتنتقل من وضع الى وضع تبعا لانتقال ذلك الطرف الذى يحوم ويناور وينقض بسرعة حوله ، ثم عليه، في الوقت ذاته، أن يأخذ من كل موضع جديد مقدمة لضربة ممكنة يوجهها الى خصمه بطرف عصاه

هو . وهذا ما يعنى أن يكون قادرا على أن ينتبه اليه فى الوقت ذاته. باختصار التحطيب مباراة بين طرفى عصاتين تحركهما أيدى متباريين وليست مباراة بين لاعبين ففيها من الاعجاز بقدر ما فيها من العنف .

ليس غريبا بعد هذا ألا تستمر الجولة أكثر من خمس دقائق ، لا يحتمل أقوى اللاعبين وأكثرهم مهارة الجهد الذهني والعصبي والعضلي الذى تقتضيه لعبة التحطيب أكثر من خمس دقائق يخرج بعدها اللاعب مجهداً بادي الاجهاد . ان كل ما يجتاح العالم الآن من رياضات العنف التي تصدرها "اليابان " حيث الضرب بالايدى والارجل والحناجر تبدو "تهريجا" بالقياس الى لعبة أهل القرى لو يعلمون .

تلك قواعد التحطيب التي ولدتها حرية المباراة . من يخالفها لايخرج على قاعدة مرسومة بل يصاب إصابة بالغة . وهكذا تصنع الحرية من خلال مخاطر الفوضى حدودها وتبقى حرية .

وللتحطيب آداب تصوغ تقاليده وقواعده . أولها الاحتمال وعدم الشكوى او الانسحاب بالرغم مما تنطوي عليه المباراة من مخاطر جسيمة. وهو ما يرعاه المراقبون من السامر، فحين يبدو الارهاق على أحد اللاعبين أو حين يوشك أن ينهزم لعدم التكافؤ، وهو ممنوع من الانسحاب، على أحد الحاضرين أن يتقدم اليه طالبا عصاه ليحل محله، وعليه أن يسلم عصاه بغير اعتراض. وهكذا تستر أداب اللعبة عجز المتبارين وتحتفظ للمباراة بحيويتها بدون أن تجرح مشاعر غير المهرة أو العاجزين . ثم لا عداء ولا ثأر إذا مات أحد اللاعبين مصابا فى الحلبة أو من أثر اصابة فى الحلبة. فعنف التحطيب ليس قتالا بل اعداد الناشئة والشباب لمستقبل ملئ بالعنف الخطير. لهذا يعلم الآباء أبناءهم تقاليد اللعبة وقواعدها وآدابها وهم بعد صغار لا يحملون الشوم بل "بوص القيضى " أو سعف النخيل، ولا يكف الآباء عن تحريض وتدريب الناشئة من أولادهم على مواجهة متاعب الحياة وقسوتها من خلال ألعاب عدة بالغة العنف، ولا الأولاد يكفون، ليس هذا انتقاء فلا تعرف القرية من أوجه لهو ولعب الصبية من أولادها إلا العنيف.. ولا الصبية يعرفون . إنما هى الفطرة التى تعد فى ملاعب الطفولة كل صغار عالم الحيوان لمواجهة مخاطر الحياة .

(٦)

يتعامل صبية القرية مع الطبيعة تعاملا مباشرا فى أغلب الحالات والأوقات. فلا غطاء ولا كساء ولا حذاء. يعيشون شاردين خارج البيوت لا مشردين فلا يلتقون بآبائهم منذ الصبح الى أن يجمعوهم بعد العشاء. يلتقون معا ويتعارفون ويتعاركون ويلهون ويلعبون كما سيفعلون حين يكبرون. وحين يكبرون ستكون ألعابهم قد أعدتهم لممارسة العنف واحتمال ممارسته.. وهذى نماذج ..

" الطرطقة "...

يقطع من سعف النخل جزء غليظ فيصبح عصا غليظة. تخفف قسوتها بأن يشق أحد أطرافها إلى فروع كثيرة. فإذا ضرب بها أحد "طرطقت " فكانت منها الطرطقة اسما للعبة قاسية العنف ..

يصنعون من باقى سعف النخل " طيبانا" مفردها "طاب ". والطاب شريحة رقيقة من الجزء الخارجي من السعف، طولها نحو عشرة سنتيمترات كل منها بلون السعف الأخضر على جانب ويأخذ لونه الابيض على الجانب الثانى من لباب السعف الذى شق منه، يلزم اللعبة أربعة طيبان متساوية الطول. ثم قطعة رفيعة من السعف أقل طولا من الطيبان.

ويبدأون اللعب ..

يأخذ كل لاعب بالطيبان فى كفه ثم يلقيها على الأرض فان جاءت كلها وظاهرها اللون الأخضر فقد حصل على " ستة خضرة".. لا يعرف أحد لماذا هى ستة مع أن الطيبان أربعة.

على أي حال يتبادل اللاعبون إلقاء الطيبان حتى يحصل أحدهم على"ستة خضرة" فيصبح من حقه أن يكون "ملكا ". وعلامة هذا أن يملك "الطرطقة" " العصا". ويبدأ اللعب على دور الوزير. ويلقى كل واحد، ماعدا الملك ، طيبانه الى أن يحصل واحد منهم على "أربعة بيضا". يكون اللون الظاهر لكل الطيبان أبيض فيصبح وزيرا ، يأخذ تلك القطعة الرفيعة من السعف ويضعها فوق اذنه ، لماذا اذنه؟ رمزا للقلم كما كانت العصا رمزا للقوة. ميراث عصور كان الملك فيها للاقوى وكانت الوزارة للعلماء.

ويل بعد ذلك للرعية كما يحدث فى أغلب العصور.

يتناوب الباقون إلقاء "الطيبان "، تمارس الرعية نشاطها محكومة بالصدفة، الى أن يكون من سوء حظ واحد منهم أن يحصل على " قتلة". ودلالتها لا تخفى . وعلامتها أن يأتى طابان أخضران وطابان أبيضان، حينئذ يتوقف اللعب الى أن تنفذ العقوبة على من لم تكن له إرادة فى وقوع الجناية، تبدأ المحاكمة.

الملك : ياوزير...

الوزير: حكمك يسير..

الملك : كام وكام.

الوزير: " يسمى أى عدد من الضربات يريده ".

فيمسك الباقون بمن حكم عليه ويطرحونه أرضا على ظهره ، ويرفعون قدميه العاريتين مضمومتين بقوة أيديهم المتعاونة. ويبدأ الملك بكل ما يملك من قوة تنفيذ الحكم ضربا "بالطرطقة" على قدمي الضحية الى أن يستوفي العدد الذى أشار به الوزير.

قاسية؟

ليس الى الحد الذى يتصوره الذين لم يشاركوا فيها.

لأنهم لا يعرفون أوقد يعرفون أن ممارسة الحفاء تستنبت فى الانسان طبقة من الحراشيف السميكة تغطى باطن قدميه. أكثر سمكاً من نعل الحذاء المصنوع من جلد البقر وأقل منه حساسية . وهى تزداد سمكا مع تقدم العمر. وقد تصل فى سن الكهولة الى ما يقارب ربع السنتيمترسمكا، وحين تجف في فصل الجفاف تتشقق كطمي النيل الذى يخلفه فوق التربة بعد انحسار الفيضان. حينئذ يعالج الكبار زوائدها الجافة التي تعوق سيرهم حفاة بنصل سكين حادة، يقطعونها ويصقلون حوافى الشقوق.

نوع غريب من البيديكور.

لا تكون لعبة" الطرطقة " إذن بمثل ما يظهرمن قسوتها مع أن العقوبة قد تصل الى مائة ضربة لولا أن يهن ذراع الملك الصغير، أما إذا تحطمت بعض فروع " الطرطقة" ذاتها، فقد أعدوا من قبل أكثرمن " طرطقة " لمواجهة مثل هذا الموقف.

وكما هى سنن الحياة لا يدوم الملك لأحد. يسقط الملك إذا ما حصل أحد الرعايا على "ستة خضرة" فيصبح ملكا ويستولي على أداة السلطة، ومثل هذا يحدث للوزير. ويصبح الحاكم محكوما، وتتاح فرص الانتقام . وقد تتحطم " طراطق " كثيرة على أقدام من كانوا ملوكا أو من كانوا وزراء. ولكن هذا لا يحدث كثيرا. فقد تعلم اللاعبون الصغار، من لعبتهم ذاتها، أن كل شئ متغير وأن على كل واحد أن يتحرر من غرور المقدرة الراهنة ويتحصن ضد مخاطر المستقبل .

فينخفض عدد الضربات بفعل وعي الوزراء قواعد تداول السلطة. ويصبح الملك الواعى تداولها أقل عنفا في تنفيذ الاحكام . ويفرض قانون تداول السلطة على الرعية أن يتعاونوا، كل في موقعه، على الحد من قسوة اللعبة المشتركة والاحتفاظ لها بغايتها المرحة .. الى أن يحدث اضطراب فى العلاقات بين الافراد، نزاع على البلح مثلا، فتسترد اللعبة قسوتها فلا تجدى حتى الحراشيف .

ولكنهم يتعلمون ما هو أجدى فى حياتهم من اللعب. المقدرة على احتمال الألم. مهما تكن العقوبة قاسية، ومهما يكن تنفيذها عنيفا، ومهما يكن وراءها من رغبة فى الايذاء، لا محل لرفض العقوبة أو الشكوى منها أو التعبير عن الالم صوتا أو حركة أو دموعاً، ومن يفعل لا يكون جديرا بالاشتراك في لعب القرية بكل أنواعه، يشيع عنه ما حدث فيصبح منبوذا الى أن يتحدى ويثبت أن الغلام لا يزال رجلا.

لماذا ذاك العنف العنيف الذى تنطوى عليه كل ألعاب القرية؟

قسوة الحياة فى القرية خلقت أرقى فضائلها: احتمال القسوة لتستمر الحياة. غيبة الأمل فى مغالبة الحياة، خلقت فضيلة الكف عن الشكوى لمن لا أمل فيه، وهكذا ما فتئت القرية تدرب أولادها وهم صغار يلهون على ما سيحتاجون إليه حين يكبرون ويعملون. تقدم للهوهم ألعابا قاسية لتحصنهم ضد قسوة الحياة الجادة، كما يلقح الجسم بالميكروب ليتحصن ضد الاصابة بمرضه. وعلى مدى الحياة الطويلة وأجيالها المتعاقبة يتعلم كل مجتمع ما هو فى حاجة اليه. كما تعلم مجتمع القرية منذ الغارة أن الشجاعة رأس الفضائل كما تكون بالاقتحام الايجابي وهزيمة القاهرين عنوة تكون بهزيمة القهر ولو سلبيا بتحمل آلامه وعدم الشكوى منه ولو كانت الحياة ذاتها هى ثمن الصمود.

وإلا؟

فلماذا تزج القرية بأبنائها وتهتف للمنتصر منهم فى لعبة "دارت " ولعبة "العضمة" وكل منهما تنطوي على مخاطر الموت أو الجرح الجسيم وكلها تبيح العنف بدون حدود.

" دارت "

يدق وتد فى الأرض الصلبة يتصل به حبل غير قصير، متران تقريبا. ويصطنع كل لاعب "زخمة". وهى حبل مجدول من النسيج الغليظ ، ويلقيه فوق الوتد. وتحدد القرعة من يمسك بطرف الحبل أولا. فإذا تعين كان عليه أن يباعد بينه وبين الوتد بأن يشد الحبل ولا يرخيه أبدا، وأن يمسكه بكلتا يديه حتى لا يستعمل أحدهما. ثم عليه أن يحول بين اللاعبين وبين "خطف

" كل منهم " زخمته "، وذلك بأن يلمسه بقدمه، ويتحلق اللاعبون حوله يتظاهركل منهم بانه يهم بخطف الزخمة، ويستجيب ماسك الحبل فيدورجريا مبعدا من يحاول طاردا له بإحدى رجليه أو يلمسه فيحل محله. ويتكاثر اللاعبون حركة. ويشاغلون ماسك الحبل وهو يجرى دائرا متقدما وراجعا، محيط الدائرة التى رسمها حبله المشدود أبدا. ولا يلبث أحد اللاعبين أن يخطف "زخمة" بدون أن يدركه حارس " الزخم "، ثم يليه آخر، حتى تبقى زخمة واحدة فتصبح اللعبة أكثر متعة. انتباه الحارس أصبح منصبا على زخمة واحدة . وباقى اللاعبين لا يكفون عن محاولة خطفها. و تلك فرصة مواتية ليلمس منهم أحدا. فإذا لم يفلح وانتهى الأمر الى أن فقد الحارس ما كان يحرسه، واسترد كل لاعب " زخمته " المجدولة بدأ الضرب .

فى هذه المرحلة يتبارى اللاعبون فى ضرب الحارس " بزخمهم " المجدولة ويتبارون فى عنف الضربات أيضا، ويكون على الحارس أن يدور ممسكا بحبله شادا له ليتقى الضربات ويتلقاها مطلقا قدمه فى اتجاه كل ضارب، وسيبقى كذلك إلى أن يلمس لاعبا فيبدأ اللعب من جديد باعادة وضع " الزخم " فوق الوتد ..

وقلما يتيسر لحارس أن يلمس واحدا من الضاربين قبل أن تكون أطراف الزخم قد أدمت وجهه، ولا انسحاب، ولا شكوى . ولا بكاء ، الابناء يلهون والاباء يراقبون معجبين بالقوة والمقدرة على احتمالها معا..

و " العضمة " ..

العضمة لعبة عنيفة وعمشاء معا، أنها لعبة ليالى الأهلة حيث لا يكاد يرى أحد أحدا وتتعارف الاشباح بالاصوات وتعجز أضواء السماء الباهتة عن أن تكون بدائل هادية . ولليالي المحاق في القرية أحكام . يتجمع الرجال فى المناضر (المضايف) يسمرون ولا يدبون فى الدروب المظلمة الا جماعات غادية أو رائحين خشية الغدر واجتنابا للشبهات الظالمة . فتخلو الدروب والرهبات والخرائب لعبث الغلمان ولهوهم العنيف . وتنعقد لعبة"العضمة" ليلة وراء ليلة الى أن تتاح الرؤية بنور القمر الجديد فيكفون الى أن تعود الأهلة مرة أخرى . وهو كاف لجبر العظام والتئام الجروح التى خلفتها لعبة" العضمة " .

و"العضمة" من " العظم "، شظية من العظم، يختارونها ويميزونها منذ النهار كما يختارون المكان ويميز كل فريق أفراده ويتعارفون. يكل كل فريق إلى أطول أفراده باعا ليكون ممثله عند " الموق " و" الموق " هو المكان الذى يقف عنده الفريقين. وتقذف من عنده "العضمة " لتعود اليه.

يبدأ اللعب من تختاره القرعة . فيلقى ممثله بشظية العظم الشظية فى جوف الليل وبقايا الخرائب وأكوام الاتربة وما يغطى دروب القرية من نفايات. وعلى أفراد كل فريق أن "يعثروا " على العضمة وأن يعودوا بها الى الموق. فيمشطون الأرض بأيديهم الصغيرة ويدسون أصابعهم فى الجحور خائضين بقايا الروث والتراب أو الطين، باحثين عن " العضمة" فإن عثر عليها واحد من فريق عليه أن يطلق صيحة متفقا عليها تقول "حيتك "ثم يعود بها الى الموق جريا وليس تسللا .

الى هنا تبدو لعبة عمشاء ولكن غير عنيفة.

أبدا، يبدأ اللعب " الجد" بعد أن تنطلق صيحة " حيتك " إذ يعلم الباقون أن " العضمة" لم تعد فى مكان من الأرض فيكفون عن نبش الأرض، ويعرفون من جرس الصيحة إلى أى فريق ينتمي من صاح. هنالك يكون مباحا لافراد الفريق الآخر أن يعترضوه وأن ينتزعوا منه " العضمة". ومباح لافراد فريقه أن يدفعوا المعترضين، ويتبادلون العضمة فيما بينهم، وعلى من آلت اليه أن يصيح " حيتك " فيعترضه الآخرون. ومباح أن يلجأ كل فريق الى كل وسائل العنف ليكون هو الذى عاد " بالعضمة" الى"الموق " ويصبح الأمر اقتتالا حقيقيا . وتختلط الاجساد المتصارعة بما يثيره الصراع من سحب الاتربة التي تزيد الظلمة ظلاما فلا يقع تحت الحس إلا الصياح والصخب ورائحة الغبار الكثيف .

كيف تنتهى هذه اللعبة؟ ..

قلما تنتهى إلا حين يعجز اللاعبون عن الاستمرار في الاقتتال . وقلما تتسع ليلة واحدة لأكثر من جولة واحدة. وقلما ينجو أحد من اللاعبين بجلبابه دون تمزق أو بجلده دون جروح أو بعظامه دون كسور، وما تنتهى سلما إلا بخدعة مدبرة يسر واحد من فريق إلى زميل قريب بأنه قد وجد العضمة و يصيح ثم ينطلق هو وزميله عائدين الى الموق فلا يعرف الفريق الآخر أيهما الذي يحملها ويتكاثرون على أحدهما فيقاومهم ما استطاع حتى يدرك الآخر "الموق " يحمل العضمة إذا كان حاملا لها. حين تنكشف الخدعة يثأر الفريق الآخر من المخادعين ويبدأ اقتتال صريح العداء لا يشارك فيه كل اللاعبين، إذ تكون اللعبة قد انتهت .

في الصباح يعلق الكبار على ما جرى فى الليل وهم يضمدون جراح المصابين بما يدسونه فيها من مسحوق البن أو التراب ثم ينقلون خبرة صباهم الى أبنائهم ويعلمونهم كيف يعثرون على "العضمة" وكيف يعودون بها إلى "الموق " صائبين لا مصابين .. فى الليلة القادمة..

ولا أحد يكف عن اللعب، ولا أحد يشكو، ولا أحد يبكى ولو تحطمت عظامه.. إلا أن تكون "عقربة" كامنة فى أحد الشقوق لدغت غلاما. فله أن يصرخ "عقربة " ايذانا بالكف عن اللعب فورا وتعاون الفريقين على حمل الملدوغ الى منزل أهله ... وكثيرا ما كانت تقطع العقارب بتدخلها السام بهجة اللعب العنيف...

(٧)

فى الأيام الأولى من الفيضان تتدفق مياه النيل العكرة بالطمى الى المصرف الأول الذى يلى البيوت طاردة ما كان فيها راكدا مطهرة مجراه من النفايات العفنة ومن صغار أطفال الطين كى لا يغرقون. ويتحدى تيارها صبية آخرون. ينزلون اليه من بيوتهم وعلى كل واحد منهم جلباب أبيض تتناثر على مقدمته بقع جافة من الدماء داكنة. وقد علق فى رقبته خيط دقيق "أمشوهرة" قطعة قصيرة دقيقة من سعف النخل الأخضر حفرت عليها دوائر غير عميقة، يمشي كل منهم وقد باعد ما بين قدميه وأبعد جلبابه بإحدى يديه حتى لا يلمس الجلباب جرح الختان. فإذا ما حازت المياه الجارية أعلى أفخاذهم رفعوا جلابيبهم ليتيحوا للمياه الدافقة فرصة تطهير الجروح

مما قد يكون بها من صديد، يبقون هكذا واقفين كسرب من طيور أبو قردان بضع ساعات وهم سعداء بأن دخلوا مرحلة الاعداد الجراحي لمرحلة الرجولة. ويعلمون- أن بعض أعضائهم أعز من الآخر فيتفاخرون بحظوظهم بماء هو عزيز وهم يتضاحكون، حتى إذا ما اكتفوا انصرفوا الى بيوتهم مهرعين . هناك تكون كل أم ذات ابن جريح قد أعدت قد دواء الجروح، أنزلت من فوق سطح البيت بضعة من بوص القيضى القديم .. تتأمله حتى إذا ما لمحت خرما دقيقا نزعت القشرة فإذا بلباب البوص وقد حوله السوس إلى دقيق، تجمعه الأم فى آنية، فإذا ما عاد المحروس ابنها من نهر التطهير رشت على جرح الطهارة دقيق البوص فكان فيه الشفاء العاجل بإذن الله، ولم يحدث أبدا فيما يذكر أهل القرية ان استعصى الشفاء على ذلك الدواء... واسأل مجربا ولا تسأل طبيبا، فلا ختان قبل الفيضان ولا بعد الفيضان .

لهذا فإن موسم الفيضان الذى هو موسم البطالة من العمل والشقاء بالنسبة الى العامة هو موسم عمل محمود المزين خاصة.. اختاره العمدة من بين المزينين وسلمه إلى طالبيه فى المركز الذين سلموه الى طالبيه فى مكتب الصحة بعثة لمدة أسبوع تعلم فيها كيف يجرى عملية الختان . فإذا جاء موسمه انهمك فى ختان المنتظرين الفيضان منذ عام . وليكون حكما يروى للناس من بكى ومن لم يبك من الصبيان. من أجل ذلك يتحمل الصبيان الألم فالألم ولا العار. ولقد حمل "حكيم الصحة" بعد البعثة عينات من الادوية مطهرات الجروح . فلما نفدت لم يتذكر أن أحدا قد تذكره فأمده ببديل عما نفد. فلم يهتم بمن لم يهتموا به وبارك دقيق السوس، كما أن أحدا لا يهتم بأن يتابع نشاطه الصحى أو نشاط صحته، فبقى محمود المزين حكيما للصحة حتى كادت الشيخوخة أن تطفىء نور عينيه ، خلال تلك السنين الغبراء لم يفلح الخوف من العار فى أن يكف الصبية عن البكاء، بل أنهم يصرخون . إذ لا يحس أحد غيرهم ولا يبصر تجاوز الموس فى يد مرتعشة من الكبر تقودها عين غير مبصرة وعين بين بين.

مالم ترتطم الوالدة بصخرة لا تفقد جنينها، فهي في حركة دائمة عاملة لا تهدأ فى ترتيب ادارة مملكتها ورعاياها من الأولاد والبنات و " ممتلكاتها " من المواشي والبهائم والاغنام والدواجن، وهى الساقية، الراعية، الطاحنة، الخابزة ، فجدر جسدها متماسكة فماسكة جنينها، وهى تلده بأقل اعانة وعناء، ولا تكف النساء عن الولادة. غير أن فترة من الاجهاض "الحكمى" تمتد ثلاث سنوات بعد أن يولد الطفل . " وهم يعبرون عن الاجهاض بلفظ "أرم ".. من الرمي أو القذف ويعتبرون أن من يموت طفلا دون الثالثة " أرم ". مثله مثل من لم يولد قط . وحين يموت فهو أمرالله ولا يتساءلون ويدفنه والده ويعود الى ما يشغله فلا جنازة ولا عزاء ولا يحزنون. ولا يقيدون اسمه فى "دفتر الوفيات " عند العمدة لأنهم لم يقيدوا اسمه اصلا فى "دفتر المواليد" مادام لم يبلغ الثالثة. فإذا بلغها قيدوه وأعدوه للختان . وبمناسبة الختان يعلقون فى رقبته رمز الحياة الفرعوني مصنوعا من قطعة دقيقة من سعف النخيل حفرت عليها دوائر غير عميقة .

يموت كثير من الأطفال دون الخامسة. لا تنتقص من عددهم زيادة عدد " الاحجبة " التى يصطنعها الوافدون من المغاربة قاصدين الحج الى بيت الله، ويزعمون أنها تحفظ الصغار وتطيل الأعمار، أما بعد الخامسة فيدخل الطفل بذاته معركة ضد كل أنواع الأمراض. ولكل مرض علاج، الجروح تغلق بالبن أو التراب ماعدا جرح الختان فيداوى بدقيق السوس... الالتهابات الجلدية بالطين . الدمامل بأوراق البصل المشوية قبل أن تنبلج، فإذا انبلجت فعجين

مشبع بالملح أو غطاء من أوراق الخروع . أما أمراض العيون "فبالخبط ". والخبط هو أوراق شجر السنط الرقيقة، تجمع وتغلى حتى تصيرعجينة ثم تطمر بها العين المريضة، ولما كانت ذات أثر فوري فى امتصاص الحرارة فإنهم يستبشرون بها علاجا للمرض إذ الحمى عندهم هى علامة كل مرض. وحين يصاب واحد منهم " بالرعاشة" (الكوليرا) فوعاء ذو نار موقدة يلقى فيها مسحوق الشطة. يستنشق المريض دخانه النفاذ فتتوقف الرعشة .. خلال تلك المعركة التى تمتد حتى السادسة عشرة يموت من يموت مأسوفا عليه. ومن يبقى فقد تحصن ضد الامراض الكثيرة التى مر بها فقلما يمرضون أو يموتون مرضاً بعد ذاك السن إلا بفعل العقارب والثعابين ومعارك الشوم والأوبئة ومن يفلت يموت شيخا.

إلا إذا أصابته دون الشيخوخة نقطة . وهى من فعل الجن . يكون الرجل دابا على الأرض موفور العافية ثم يقع . فإن أدركوه ميتا فقد قتلته أنثى من الجن كان "مخاويها " . والمخاواة علاقة غير شرعية بين جنية اختارت عشيقها من الانس وارتضى هو تلك العلاقة الآثمة، فإن هجرها سكبت

على قلبه من لعابها الكاوى نقطة فقتلته فورا. أما إذا أدركوه حيا وقد شل لسانه أو بعض أعضائه فهو جن قد تلبسه انتقاما لأمر لا يعلمه إلا هو، فيدعون الشيخ عبد الرازق على عجل، إنه مطهر الاجساد من الأرواح الخبيثة، يحضر الشيخ ويكون المريض قد نقل الى داره، وتم تجهيزه "للعملية" يلقى على الأرض ويغطى بحرام . وهو غطاء من غزل الصوف الكثيف، لا ينفذ الهواءمن نسيجه من فرط كثافته. أصلا لتدفئة الأسرة فى ليالى الشتاء، فهو يكفى طولاً وعرضاً لغطاء أسرة كاملة الاعضاء. يدخل الشيخ عبد الرازق وقد تقدمه صبيه، وهو يتمتم بكلمات غيرمسموعة، فيشكر لأهل المجني عليه أن غطوه فحجبوه لا يقول عمن . ثم يوصى نفرا منهم بأن يضغطوا على أطراف الحرام حتى يستوثقوا من أن أية" ريح " لن تخرج من داخله ولن تتسرب اليه فيفعلون. ويأمرفيأتونه بوعاء من نار، وبقطع من بقايا الأقمشة البالية . فإذا اتقدت النار ألقى فيها من بقايا الاقمشة ما يحول دون لهيبها ويحيل ما ألقى فيها الى دخان كثيف كريه الرائحة . فيأخذه بيديه وهو يتلو ما لا يعلم أحد . ثم يدسه سريعا تحت الحرام حيث المجني عليه والجانى والدخان الكريه معا، والآخرون يحكمون عليهم الخناق. ثم يصرخ "أخرج من جسده يا ملعون " ويرددون وراءه ما يصرخ به مع تنوع الشتائم . وبعض النساء يتوسلن للجاني أن يعفو عن المجني عليه من أجل أولاده ومن يعول.

هنالك لا يكون للمحبوس تحت الحرام إلا أحد مصيرين، اما أن يموت مختنقا بالدخان الكثيف الكريه، واما أن يعود سليما كما كان . تسبق المصيرين معركة ضارية تدور تحت الحرام . ينبئ عن ضراوتها ما يصدر من الحبيس الذى كان صامتا من أصوات وحشرجات وخوار، وهو يضرب بكل قوة فى جسده فى كل اتجاه محاولا اختراق الحرام لولا كثافته أو إلقاءه عنه لولا أن يثبته الآخرون عليه. وتسكن الحركة ثم تعود أشد ضراوة واصرارا فتعلو شتائم الروح الملعونة وأمرها بمغادرة ضحيته. بعد نحو عشر دقائق تسكت الأصوات وتسكن الحركات فيرفع الشيخ عبد الرازق الغطاء . فإذا بالرجل وقد بلله العرق الغزير وانحسر عنه الدخان الكثيف ولايزال فيه نفس يتردد . فيدعون له بالشفاء بعد أن يصبوا فى فمه قدرا من الدهان .. بعد ساعات قد تطول وقد تقصر يأتي نبأ وفاته أو شفائه ولا يعود مشلولا أبدا، إن مات فلبقاء لله ولا راد

لقضائه، ولكن كيف يشفى؟ سر الشفاء في تلك المعركة الضارية التى دارت تحت الحرام بين قوى الحياة وأسباب الموت، ففيها تجتمع و تتكثف كل قوى الحياة لمقاومة أسباب الموت ولا يكون اجتياح "الجلطة" التى سببت الشلل إلا معركة عرضية من حرب منتصرة بين الجسم الحي وأسباب فنائه. كذلك يقول الذين يستفزون قوة الحياة للشفاء من الشلل بالصدمات الكهربائية .. على أي حال لا يحدث ذلك إلا نادراً فأهل القرية الذين يقضون حياتهم بدون حاجة إلى الرياضة لانهم عاملون أبدا مجهدون كلما عملوا، لا يأكلون إلا إذا جاعوا وإذا أكلوا لا يشبعون، قلما يمرون بتجربة مرض القلوب والشرايين والأوردة.. فلا يحسبون تلك أمراضا وينسبونها إلى الارواح الخبيثة .

أما "الحجامة" أو "الفصد" لاستخراج الدم الفاسد من الجسم خلال جروح سطحية تحدثها الأمواس فى الرأس أو الصدغين فليسا من الأدوية. انهما من مسكنات ألم الصداع الذى يلم بالرجال. أما النساء فلا حجامة ولا فصد حفظا لشعر الرأس ونضارة الوجه.

يبقى بعد ذلك أكثر الأمراض خطورة وخطرا..

خطورة لأنه زلزال غير متوقع يهز أركان الأسرة الناشئة ذاتها ويهدد بتدميرها، وخطرا لأنه يصيب ربة البيت فيجردها من مملكتها التى عاشت تحلم بها حتى تولتها، ويسقط اعتبارها كإمرأة بين الرجال والنساء، أنه العقم . العجز عن الانجاب . فليس التزاوج هو غاية الزواج فى القرية، إن غايته تكوين أسرة، وليس التزاوج إلا وسيلة لذيذة تغري الرجال والنساء بالزواج لتحقيق غايته، والأسرة لا تتم تكوينا إلا بما يضاف الى الزوجين من أولاد بنين وبنات .. فإن انقضت ثلاث سنوات على الأكثر بدون أن يبدأ الزواج فى تحقيق غايته ينحدر الزوجان الى هوة مظلمة من الحياة الكئيبة لا تنتهي إلا بالانجاب أو اخلاء الزوجة مكانها لامرأة أخرى خصيبة .. ذلك لأن أحدا فى القرية من الرجال أو النساء لا يتصور أن يكون الرجل عقيما. وكيف يتصورون والرجل فى عافية، والمرأة مواتية ، والماء يتدفق فى الآنية، وهم لا يعرفون إلا أن من ذلك الماء الدافق تصنع الاجنة فى الارحام . فإن طال الزمن ولم تنجب فهى المريضة افتراضا أو فرضا، والعقم فى القرية مرض، لأنه مثل كل الأمراض، ظاهرة شاذة تعترض سنن الحياة السوية .

فى نضال بالغ النبل مق أجل الحفاظ على الأسرة تدوخ الزوجة وأمها لفا على كاتبي الأحجبة التى تعيد الخصوبة ، أو تبطل السحر، وطوافاً على أضرحة أولياء الله الصالحين للدعاء والنذر والوعد بالوفاء أن تحقق الرجاء. وتترددان على مقابر "المساخيط " تلتمسان فى آبارها أثرا من عظام سكانها الاقدمين لتخطو عليه الزوجة سبع خطوات فقد قيل لها ان في ذلك الشفاء. وقد يحملها الخوف من اليأس على تناول ذلك الدواءالبغيض ، أن تبلع على الريق صباح يوم جمعة فرخا قبيحا بغير زغب فقس حديثا من بيضة طائر"الزرزور" الذى يبني أعشاشه فى أشجار السنط.. تبلعه حيا ..

أو تقبل " الصوفة "..

والصوفة اسم لطريقة عجيبة لما يسمى اليوم بالتلقيح الصناعي ، فهى كرة صغيرة من الصوف المندوف مشبعة بسائل لزج . تعدها الداية وتدسها برفق فى رحم العقيم فى يوم محدد بين القروء. لا يعرف أحد سر الصوفة الا الداية التى ورثت سرها عن أمها الداية عن جدتها الداية منذ مالا يدرى أحد من القرون. ومن خصائص الأسرار ألا يحاول أحد كشفها وأن يكون حفظتها من الامناء . كثيرا ما تؤدى الصوفة إلى الحمل فى النهاية لتكون دليلا على أن الزوجة لم تكن هي المريضة منذ البداية، ولكنه دليل ينكره الرجال وتستنكره النساء . فيغلقون جميعا باب الريبة فيمن يكون والد المولود، خاصة وأن الداية ذات الدراية تبدأ بالزوج جهرا وقد لا تكتفي به سرا، فقد يكون الوالد هو الزوج وقد لا يكون ...

ولا يعوق شئ من هذه الفرحة الطليقة بالمولود يوم الختان .

(٨)

إذا جاء العصر ينعقد السامر فى الرهبة انعقاداً بدون عقد. يتوافد الناس ويشاركون بغير دعوة. الأطفال على الأرض جالسون أمام المصاطب والمقاعد الخشبية (الدكك) المضافة وعلى هذه يجلس الكبار. وراء الكبارحلقة محيطة من النساء محجبات بالشقق السوداء.

الفصل الأول جولات حتى المغرب من مباراة "القلاوي " المسماة " التحطيب ".

الفصل الثاني عشاء لمن يريد (بوفيه مفتوح) من الثريد ولحم الجديان المسلوق.

الفصل الثالث : زفة العرب.

يقف رهط من الرجال صفا يواجه السامر، اكتافهم متلاصقة. وأمامهم حاديهم عوض الله حامل الطار الكبير عوض الله يشدو بغناء من ملاحم القتال يصف فيه التحام الصفوف وصهيل الخيل وصليل السيوف ووعود النساء للمقاتلين المنتصرين بالغزل المكشوف. ويمثل كل مقطع رقصاً عنيفا أو رقصا خفيفا على ايقاع الطار. بينما يتمايل صف الرجال يمينا ويسارا على الايقاع ذاته وهم يغنون معا أغاني أخرى مقابلة لما غنى عوض الله. فإذا توقف عوض الله وقف مواجها السامرين وأنشد أبياتا قليلة من شعر البادية القديم . ويتحدى من يقبل الى " فك " ما أنشد من أبيات . الى ترجمة كلمات الاجداد العرب الى لهجة القرية ليعرف من لا يعرف ماذا كان يقول الجدود. إنه اختبار صدق الانتماء الذي عليه يحرصون .. فيتبارون فكا، ويصحح لهم عوض الله فكها . أو يرقص لمن أثبت انتماءه رقصة الانتصار . فتنطلق الزغاريد من النساء ويتمايل بقوة صف الرجال وهم يدقون الأرض بأرجلهم الحافية ويغنون . وهكذا يمضي الليل وهم يرقصون ويتمايلون وينشدون ويتبارون فى فك ألغاز لغة جدودهم فى رهبة متربة على ضوء مصابيح زيتية مخنوقة الضوء، فلا يكاد أحد يرى أحدا إلا شبحا..

هنالك مسك الختام ...

ينطلق شبح أنثى غير محصنة من بين النساء، ملفوفة في دثار أسود الى حيث صف الرجال. وتجلس على الأرض أمام من تختاره . فيتوقف الجميع عن الرقص والقفز والغمز و اللمز ويترقبون، على الذي اختارته الفتاة المجهولة أن ينشد لها موال غرام ، لابد له من أن ينشد

فكل من انضم الى صف الزفة قد توقع أن يحظى بهذا التكريم فأعد له عدته موالا محفوظا، يتقدم خطوة بارزا عن الآخرين ظاهرا للسامرين ثم ينشد مواله. فإذا فرغ عاد الى مكانه وعادت هي الى حيث كانت تزفها الزغاريد وأغاني وداع ووعود يتقنها عوض الله . ثم غناء جماعى قصير يهنئ فيه صف الرجال صفوتهم بشهادة الفتاة تلك المجهولة، وقد تندفع الى الساحة أخرى أو لا تندفع الى أن يرضى كل حاضري الفرح أشواقا مختلفة بتعبيرات عدة ويباركون لصاحب الفرح ويشكرون عوض الله النصراني على احيائه بعض تراث عروبتهم، ثم يعودون إلى بيوتهم راضين .

تلك هى زفة العرب كما يسمونها فرح الاحتفاء بالذكور حين الطهور.

لا يعرف أحد من الذكور، ولا يسأل ليعرف، كيف يجري ختان الفتيات.. المعروف فقط أنهن تتختن فى حجور الأمهات بمعرفة الدايات داخل الحجرات. متى، أين، كيف، من أسئلة ممنوعة .. لا تنجسيا بل تقديسا .

(٩)

"فرعون " كلمة تعنى "البيت الكبير "أو" المائدة الكبيرة " ولا تعني التمساح كما قال استاذ اساتذة اللغة العربية أبو البركات بن الانبارى فى كتابه البيان فى غريب أعراب القرآن منذ أربعة عشر قرنا. حين اختارها ملوك مصر القدامى لقبا لمن يحكم مصر، ربما على عهد الحاكم بيبى الثانى، كانوا يعبرون بها عن ملكيته مصر أرضا وبشرا وانتاجا. ولم تكن تلك ملكية الاستعمال والاستغلال والتصرف والاستهلاك كما أصبحت دلالة الملكية الخاصة فى أوربا بعد قرون طويلة. كانت أقرب إلى ملكية حق الحفظ والتنظيم والادارة وللناس من بعد هذا حق الانتفاع . وهو نظام لا موضوع ولا مصنوع بل صيغة للعلاقات الاجتماعية متسقة مع حقيقة أن الفرد المفرد لم يوجد قط إلا تلك الفترة الرمزية التى كان فيها آدم وحيدا قبل أن يلتقي فى الجنة بحواء، واذا كان الخلق قد بدأ بأبي البشرية آدم فإن الخلق لم يكتمل إلا بحواء فأصبحا مجتمعا من ذكر وأنثى لم يلبثا أن تكاثرا فى الأرض . منذئذ والناس فى الأرض مجتمعات. أسر أو عشائر أو قبائل أو شعوب أو أمم تنظمها علاقات جمعية تقوم على حفظها وادارتها سلطة عادلة أو جائرة- كما قال علي بن أبى طالب - وللناس فى ظلها حق الانتفاع . هكذا كانت الفردية ولم تزل كفرا بسنن الخلق بقدر ما هى نقض لأسس المجتمعات البشرية سواء أكانت تخريبا أوتغريبا .

أيا ما كان الأمر فإن اطلال القرية وأساطير الحياة فيها - قبل الغارة- تنبئ بأن أهلها كانوا يحيون حياة جمعية في البيوت الكبيرة . لكل عائلة بيت يضيف اليه كل جيل حجرات وتختلط فيه الاجيال من الرجال والنساء والأولاد والاحفاد وما يملكون ويشارك بعضهم بعضا فيما به ينتفعون . يحفظ وحدتهم فيه وينظمها ويديرها "كبير العائلة" أو شيخها . ومع أن تلك البيوت الكبيرة قد اندثرت وعاد المطرودون ، حين عادوا ، تنشىء الأسر من كل "بيت "مساكن متجاورة ومتلاصقة بها بيوت الأسر من كل عائلة ، إلا أن القيم الجمعية لنظام الحفظ والتنظيم والادارة قد بقيت راسخة فى كل مسكن فآلت سلطة الحفظ والتنظيم فى كل أسرة إلى ربة البيت .

تترجم هندسة المساكن هذا الوضع المتميز الممتاز للمرأة . فكل مسكن، أيا كان طوله أو عرضه هو فناء محاط بجدران عالية عازلة صماء . ذو باب متين من خشب السنط يغلق ويفتح من الداخل فقط ، ولا باب غيره . فلا يدخل الى الفناء أحد، الا بأذن صاحبة الإذن داخله يطل الباب على " الدرب " عند إحدى زوايا الفناء، ولايكون أبداً في وسط أحد أضلاعه حتى اذا ما انفتح فعلى حجرة يعزلها عن فناء المسكن جدار آخر ذو باب ثان يقابل الباب الأول. إنها " المقعد " حيث يستطيع رب البيت أن يأكل أو ينام أو يستقبل من يشاء على مقعد طويل من الطين، مصطبة، مستندة الى الجدار الداخلي بحيث يطل الجالس عليها على خارج البيت لا على فنائه . أيا ما كان يفعل رب البيت فى المقعد منفردا أو مع غيره فهو وهم جميعا خارج البيت وان كانوا داخل جدرانه تماما كما كانت هندسة البيوت فى العصر الحجري كما كشف عنها برنتون عام ١٩٢٨. يفتح الباب الداخلي على " حوش " البيت وهو كامل فنائه إلا قليلا. الحوش مأوى الماشية والدواب والاغنام والماعز والدواجن حين تأوى كل تلك المخلوقات الى البيت عائدة من الغيطان أو الدروب أو المراعي مساء لتبيت فيه ، ويقوم الزير والفرن وتابعها الكانون ملاصقة للجدار المقابل لمأوى البهائم . فيما بين المقعد والجدار الجنب من المسكن وملاصقة له تلك الحجرة الضيقة غير ذات النوافذ التى يسمونها "خزانة ". ولا يكاد الحوش يتسع بعد هذا ليوجد فيه أحد إلا عابرا إلى أقصى الداخل. يصعد سلما من الطين يعلو بناء مغلقا ذا فتحة أدناه هو "الحاصل " ويصل السلم إلى حجرة منفردة يسمونها " الغرفة" أو الى حجرتين فهما "الرواق ". تطلان على سطح الحوش المسقوف فوق مأوى البهائم حيث تتراص "الصوامع " وينشر البلح . فوق الغرفة أو الرواق يخزن بوص القيضى، وهكذا لا تدخل فى حساب هندسة بيوت القرية حاجة الى أحد غير ربة البيت وبناتها الى الاقامة المستقرة فيه. أما أولادها من الصبية ففى الدروب والرهبات متسع للقادرين على تخطي العتبات . واما زوجها ففى المضايف والرهبات والغيطان مجتمع الرجال الذى ينتمى اليه . فإن عاد فأراد ففي المقعد حيث يكون داخل بيته وخارجه معا، ومع ذلك فانهما يلتقيان . وإلا فمن أين كل أولئك الاطفال. ولكنه لقاء أقرب الى ذلك النظام المحكم للقاء ملكة النحل بمن يسهم معها فى حفظ النوع وامداد الخلية بالشغيلة ثم يغادر الخلية ولا يعود . على هذا الوجه يمكن وصف ربة البيت في القرية بأنها ملكة إلا أنها قادرة على أن تحفظ لذاتها زوجها .

أما وصفها بأنها فرعونة. أى مالكة البيت الكبير، فقائم على أسس واقعية راسخة . ذلك لأن كل ما تملكه الأسرة من مال أو مما هو ذو قيمة تحت يدها، فهي خازنته وهي حارسته وهي المانحة منه ما تريد لمن تشاء، بل هى وحدها التى تعرف على وجه التحديد ما هو وكم هو وأين هو من البيت. إذ مال الاسرة هو ما جمع من الحقول حبوبا و ثمارا وهذا قد حملته الدواب الى حيث أودع فى الحاصل أو فى الخزانة. ولا يفتح الحاصل أوالخزانة إلا باذنها. والماشية من جواميس وأبقار وأغنام وماعز، والمرأة فى بيتها هى الراعية الحالبة الخاضة المنتجة جبنا ودهانا، المعبئة الجبن والدهان فى بلاليص محكمة الغلق فى الخزانة المغلقة. أما الدواجن من أوز وبط ودجاج وحمام فهى انتاجها من مفرختها الخاصة التى أنشأتها فى بيتها، وهى التى "تقيس " بأصبعها كل دجاجة مساء كل يوم لتعرف عن طريق "الكشف "المتوقع من البيض صباحا . فإن افتقدت فى الصباح بيضة أو أكثر قضت يومها مفتشة بيتها باحثة عن أكلة البيض من القوارض والثعابين ولا تهدأ حتى تطهره.

والمرأة فى بيتها هى العاجنة الخابزة الطابخة موزعة الغذاء على كل كائن حى فى بيتها من أول زوجها حتى "الكتاكيت " التى تغذيها بيدها البيض المسلوق الى أن تستطيع التقاط الحب. واذ تضم فمها على قليل من الحبوب ثم تدفعه بلسانها في منقار فرخ عاجز من الحمام فهى تغذيه وتنميه ولا تكله الى أمه أو أبيه ، وكل هذه وجبات ذات مواقيت محسوبة ومقادير مقدرة لا تعرفها إلا المرأة .

أما رعاياها من بنى الانسان "فالبتاو" هو أصل الغذاء وكل ما عداه مضاف اليه . لا ينال من أصالته ما تحتفظ به كل امرأة في "خزانتها " من دقيق القمح القليل، فذلك لا يتحول الى طعام إلا فى مناسبات محدودة، الاعياد، والاضياف ، ووجبة يوم السوق، كما لا ينال من أصالة البتاو أن يؤكل منفردا بدون اضافة . وهو بعد خبز مصنوع من دقيق "القيضى" وهو دقيق قاتم البياض ذو رائحة نفاذة لا يستساغ خبزا إلا إذا أضيفت الى كل كيلة منه حفنة من دقيق "الحلبة" شديد المرارة. تضاف حبا وتطحن معه . يعجن الخليط فى أوعية من الفخار هى " المواجير". ويترك كل ماجوربما فيه زمنا لا تعرف طوله الا المرأة ، فحين يتمدد العجين فى ماجور ويتشقق سطحه تشمه بأنفها وتعرف من مدى نفاذ رائحته إذا كان قد اختمر، وتلقيه المرأة فى أتون الفرن قطعا متساويات بمغرفة من خشب تتحول فيها إلى أقراص متساوية . وينضج الخبز حين يصبح لونه كلون البن المطحون، فتخرجه سحبا بقضيب طويل من الحديد يسمونه " المحساس ".

" والبتاو" فى البيت مثل البنك المركزى فى الدولة الحديثة ضابط الحياة الاقتصادية فيها انتاجا وتوزيعا واستهلاكا بما يحتكر اصداره من النقود أدا ة التداول . وكما أن الدولة لا تفلس إلا إذا أفلس بنكها المركزى فإن الأسرة فى القرية تبقى " مستورة " مادامت الخزانة عامرة بالبتاو. والمرأة هى محتكرة صنع البتاو فى مملكتها ومديرة حركته. وهى إدارة بالغة التعقيد دقيقة الحساب.

فربة المنزل تخبز" البتاو" فى يوم معلوم من كل أسبوع . إذ أنه يبدأ فى التعفن بعد انتاجه بأسبوع، وتعده عدا، وتودعه تلك الحجرة التى وراء المقعد المخصصة لتخزين البتاو وبلاليص المش والجبن والبلح والبصل والثوم والدهان، وتغلقها تغليقا. ثم تتولى توزيع "البتاو"على المستهلكين يوما بعد يوم حتى نهاية الأسبوع .. للكلب، أو لكل كلب بتاوة كل يوم . وعليه أن يحصل على باقي غذائه من أكوام القمامة أو فضلات الاحياء. ولكل طفل بتاوة كل وجبة، ولكل شاب كل وجبة بتاوتان . وللزوج ما يشبعه وعدد احتياطي للاضياف من ذوى القربى تحسبه ربة البيت بخبرتها بعلاقات الأسرة الاجتماعية. وعدد آخر للشحاذين الذين يطرقون أبواب البيوت من غير أهل القرية . الشحاذون من كل قرية لا يشحذون فى قريتهم ولا فى القرى المجاورة فالشحاذة عار حتى لو أملتها الضرورة. وفى القرية تزال الضرورات بعيدا عن رقابة الأعين المتطفلة. وعدد ثالث لشراء البضائع الصغيرة التى تطوف بها نسوة بائعات جائلات يحملن مقاطف من الخوص فيها "ترمس "وحلوى وأبر وخيط وحلقان وعقود من الخرز الملون و " حنة" و " كحل " وما توصي به النساء ولا يطلبنه من الرجال حياء .. يؤخذ كل هذا مقايضة بالبتاو. فإذا ما انقضى الأسبوع يكون البتاو قد استهلك عينا واستهلك مبادلة بدون زيادة أو نقصان، ويكون من مفاخر ربة البيت الأمية أن تحسب فى أول الأسبوع خطة انتاج البتاو

وتوزيعه واستهلاكه حسابا لا يخطئ فى نهاية الأسبوع. ثم تعود فتأخذ من "الحاصل "حبوبا من القيضى بقدر ما يكفى الأسبوع التالى بتاوات معدودات لا تنقص ولا تزيد.

يؤكل البتاو أثر إخراجه من الفرن طريا سائغا. فإذا انقضى على اخراجه وقت يبدد ما اختزنه من حرارة أصبح لا يطاق طعما . فلا يؤكل إلا " مقمرا " تقمره ربة البيت فى رماد النار الدافىء الذى يسمونه " دمسة " . و" يبلعونه " أي يلتمسون سهولة بلعه- بغمس اللقمة منه فى ذاك اللبن المعتق بخميرة الحلبة والشطة والملح، نفاذ الرائحة، لزج البنية الذي يسمونه " مش "، ينفضون ما يعلق باللقمة من ديدان فتنزلق سهلة في البلعوم وحيدة أو مصحوبة بقضمة بصل أو ورقة فجل أو بلحة رطبة ، أما إذا جف "عيش القيضى" فهو كالفخار بلعه محال حتى لمن يستطيع قضمه ، فإن غامر فانه قبل أن يصل الى المرئ يكون قد وخز البلعوم وربما أدماه . وأهل القرية لا يغامرون. يؤكل فتا فى سائل العدس الساخن.

لا يضاف إلى أصل ذاك الغذاء إلا صدف الغذاء من حشائش الأرض، وصدف ولائم الأفراح، وما تجود به مالكة البيت الكبير وفرعونته من فائض انتاجها من حين إلى حين . بيض لا مسلوق بل غارق فى الدهان . أو ديك مذبوح تطهيه بغير أوان مصحوب بشربة الملوخية الخضراء أو"الويكة" تقطع ثم تغلى ثم تضرب "بالمنباش " حتى تصبح سائلا تعلوه، مثل الملوخية، طبقة عائمة من "الطشة " (كثير من الثوم المحمر فيما يغرقه من الدهان) أو زوج من أفراخ الحمام تضاعف ربة البيت حجمه بأن تحشوه "بالفريك ". والفريك هو حب القمح الأخضر لا يزال غضا لينا يقطع ويجفف فى الفرن ثم يجرش ويدخر "لحشو" الحمام، لا يزرعون فى القرية الارز ولايصنعون المكرونة، ولا يعرفون مالا يزرعون أو يصنعون .

وفى أيام التحاريق تكتسي الأرض رداء أخضر من الزرع وتكون محاصيل العام الدابر قد كادت تنفد من حواصل البيوت . فيأكلون نبات الحلبة قبل أن يثمر أو مثمرا مالم يجف ويأكلون الفول الأخضر طازجا أو مسلوقا متبلا بالثوم . الثوم دائما ويسرفون فيما يضيفونه منه إلى الطعام ، أي طعام، بل هو الذى يبث فى الطعام طعمه فيستطعمونه . لا أحد، يستطيع بغير كثير من الثوم احتمال مذاق "الشلوْلوْ". وتعد وجبة "الشلولو" لمن هم فى عجلة من أمورهم أو لمن لا يجدون غيرها طعاما "يبلعون " به البتاو، مسحوق نبات الملوخية الجاف يلقى فى ماء بارد ويضرب الى أن يصير خليطا لزجا كريه الطعم والرائحة، فيسميه بعضهم "مش قطيطة"، يضاف اليه الملح والفلفل وكثير من الثوم ويغرف بلقم البتاو غرفا فليس أسرع منه انحدارا إلى أمعاء الجائعين .

أما إذا كان فى الوقت متسع وفى النفوس صبر فهي وجبة "غرام ". ماشاء أهل المنزل مقدارا من حشائش تنبت بدون زرع فى مزارع البرسيم تسمى "قرى". تحشر فى قدرمع قليل من الماء. ولا يزال الماء يغلى حتى تتماسك أعشابها فيلقى الملح والفلفل والثوم . ثم تنزح من القدر إلى طشت صغير، ويغرف كل صغيرمنها بيده ما يملأ يده. ويعصرما غرف عصرا حتى يطرد أكثر الماء الذى يسيل من بين أصابعه عائدا الى الطشت ذاته . وتبقى فى يده كورة خضراء ذات نكهة مثيرة. يلقيها فى حلقة فتنحدر الى البلعوم لذيذة بدون عناء . كما يفعل عرب الشرق بأرز المنسف جمعا وعصرا وتكويرا وبلعا. الصغار الذين يعشقونها فيعصرونها فيلقفونها

يسمونها "عصيرة " أما الكبار فلا يأكلونها ويسمونها "غرام "، ربما كانت فى الأصل " غرامة" أى عقوبة.

يعوض النيل أهل القرية عن رزق الأرض بما يحمله الفيضان من الأسماك. حينما ينحسر الفيضان تكاد تكسو الأرض، بالاضافة الى طين الغرين، طبقة من الأسماك الصغيرة البيضاء يسمونها "قشر"، جيل فقس فى مرحلة الغربة حول القرية ولم يعرف كيف يعود الى المجرى الذي جاءت منه الأمهات. ليس كأسماك الثعابين تلك التى تهاجر بالملايين، آلاف الملايين من أنهار الأرض جميعا حاملة بيضها فى بطونها عبر المحيطات، الى أن تضعه فيفقس فى مكان معلوم من المحيط الاطلنطى بجوار شاطىء أمريكا الشرقي ، فتتجه صغار الثعابين عائدة عبر المحيطات بدون الأمهات إلى الانهار التى جاءت منها الامهات، لا يخطئ واحد منها منبعه ولا يتوه، ولله فى خلقه شئون لا تزال أسرارا. مشكلة صغار السمك فى القرية أنها لا تعرف كيف تعود إلى مجرى النيل متخطية كل تلك الجسور والسحارير والسدود التى أنشأها فى طريق عودتها المسئولون عن تنظيم الري والصرف. فتتراكم محبوسة فى الحياض والمصارف والماء ينصرف عنها عائدا إلى مجراه حتى تكاد تختنق من الهواء. أهل القرية لا يعانون فى اصطياد تلك الأسماك، إنهم يجمعونها بدون عناء ، ويتفرغ الناس فى نهاية موسم الفيضان نحو أسبوعين لجمعها. فتتفرغ ربات البيوت لاخلاء أمعائها وتنظيفها ويبالغن فى هذا ويتنافسن، ثم تجهيزها لتؤكل بدون حساب صباحا ومساء وما بينهما مشوية فى الأفران أو مقلية في الدهان، أهل القرى لا يستعملون الزيت ويعتبرون استعماله فضحا لفقر الأسرة من الماشية فيكتمون استعماله إذا ما اضطروا اليه . وما يستعملونه غيرمضطرين إلابأن تغلي ربة البيت فيه كثيرا من الثوم بدون ملح أو فلفل، ثم تصفيه وتحتفظ به فى قارورة تأخذ منها بريشة طائرنقطا معدودات تغطي بها أفواه الجروح المتقيحة فهو دواء يسمونه " كرفه " .

السمك أكثر من أن تستهلكه القرية ولو أكلته ليل نهار . تفيض منه أطنان فتنشغل النساء بطرح أمعائه وغسل خياشيمه ثم "تخليله "فى محلول الملح المركزداخل البلاليص وتودعه "الخزانة" الى حين، تلك هى "الملوحة" أجدى المأكولات فى"تبليع " العيش القيضي وألذها طعما حين ينضجها الملح فى موسم البصل الأخضر. وحين يعود إلى القرية واحد من الشاردين إلى البحيرة- وهى العاصمة وكل ما يليها شمالا من بلاد- فيصف لأهلها أنهم هناك يدفنون السمك بأمعائه وما فيها فى جوف الملح الناشف حتى يتعفن ثم يأكلونه و يسمونه "فسيخا"، يسألونه أولا أن يحلف أنه من الصادقين. فإن صدق تقرف النساء ويبصق الرجال ويعجبون لبعض خلق الله يأكلون السمك بأمعائه . هذا وهم لا يتنفسون إلا ريحا زفرة لعدة أسابيع تنفثها أسماك متراكمة بدأ تعفنها منذ أن بدا انصراف مياه النهر عنها. على أى حال فحين ينقضي الفيضان بشره وخيره تخرج الأسماك من قائمة طعام أهل القرية وتبقى الملوحة تشد شهوة الجائعين . ولكن الملوحة فى البلاليص، والبلاليص فى الخزانة، والخزانة مغلقة، ومفتاح غلقتها لدى ربة المنزل التى تدخر الملوحة كغذاء احتياطي إذا ما نفد الجبن والمش طبقا لخطتها فى ادارة مملكتها . فيلجأ الغلمان والصبية الى اصطياد الاسماك من الترع بالسنانير و " سنارة" القرية مثل كل السنانير. التى يستعملها الآخرون ولكنها تختلف فى "تكنيك " استعمالها. أنها بدون "عوامة".. غلمان القرية وصبيانها لا يستعينون بعوامة لتنبههم الى مناورات السمكة مع الطعم تحت الماء، أنهم يحسون

تلك المناورات ويفهمون دلالتها مما يصل إلى أيديهم من ذبذبات عود السنارة المنقولة اليها من اهتزازات خيطها الدقيق، وهم فى هذا ماهرون.

ويفضل أهل القرية من بين الاسماك لحم "القرموط ". ذلك السمك أسود اللون طويل الشوارب. يسمونه "الحوت ". ولا يسمونه " قرموطا"، إلا نادرا.، لم يتأثروا بقرون الحكم الفاطمي ولم تحفظ ذاكرتهم شيئاً من حكاية القرموط والحاكم بأمر الله الفاطمى. يحكى أنه سأل لماذا لا يرد الى القاهرة ما يكفيها شربا وزرعا من مياه النيل فقيل لأن مجاري المياه اليها قد كاد يسدها تكاثر نبات ورد النيل . قال ولماذا تكاثر .. قالوا لأن الناس ياكلون حوت السمك أكلا لما، وهو الذى يتغذى بورد النيل. أفتى دعاة الشيعة فى اجتماعات الدعاية التى كانت تعقد فى المساجد كل يوم ثلاثاء بأن الحوت سمك نجس لا يمسه المطهرون، وقد خصه الخالق باللون الأسود ليكون طعاما "خاصا " للقرامطة الكافرين . وأطلقوا عليه " القرموط " لتأكيد الفتوى . وقد كان. كف أهل القاهرة عن اكل "القرموط " ولا يزالون فسال الماء إلى القاهرة كما اراد الحاكم بأمر الله. ولم تبلغ الدعاية أهل الصعيد فلا يزالون يفضلون لحم القراميط و يسمونها الحيتان . وهي فرائس سهلة للصائدين .

(١٠)

لايخرج عن ملك المرأة ولا عليه إلا من خارجه . أولئك السفهاء من الرجال العاطلين المتكئين على المصاطب في الرهبات الذين يكثر بينهم الحديث ولا يكفون عن تدخين " الجوزة " يحشون احجارها الفخارية بمفروم الطباق بعد أن يشبع عسلا أسود . جمرات النار تحرق الطباق وتحوله الى دخان ذي رائحة زكية . يمتصه حامل الجوزة فإذا هو ذو نكهة شهية بعد ان يكون قد مر بمياه الجوزة النقية . وتنتقل الغابة من فم إلى فم حتى يحترق الطباق فيستبدلون به طباقا " معسل " لم تمسسه نار ولايكفون . ثم الشاي يغلونه حتى يصير حبراً مراً فيصبون فيه السكر حتى يصير عسلاً حلواً . ويرشفونه على مهل بشلاليفهم التي تسمى في المدن " شفاههم " ويستقبلون مصاً في خشومهم التي تسمى أفواههم ، بصوت ممدود مسموع . ولا يدفعون لأي من هذا ثمنا . إذ أن كل هذا يباع نسيئة فى دكان محمود أبو الحسن الذي أنشأه بعد عودته من الأزهر كما ذهب اليه إلا " فك الخط " وهو كاف ليفرد لكل شار منهم ورقة يقيد فيها ما شاء اثباتا لما شاء الرجال فى عالمهم أن يشتروه الى أن يأتى يوم السوق، والزوجات الملكات قلقات من أن يكتشفن حين يجئ يوم السوق كم هم سفهاء أولئك الرجال الذين يأخذون من "قوت العيال " ثمن ما يشترونه فيحرقونه فيصير دخانا أو يغلونه فيصير شايا . ذلك لأن اغتراف قدر الحبوب هو المصدر الأساسى للحصول على النقود إذا ما بيع فى السوق .

لكل قرية سوقها فى يوم معلوم من أيام الأسبوع. ولما كانت القرى متجاورة فإن أيام الأسبوع كلها أسواق مسماة بغير دلالتها الحقيقية كأماكن ومواقيت التقاء للبيع والشراء وتبادل البضائع، تلك أسواق البنادر والقرى الكبيرة، سوق البدارى يوم الاثنين. وسوق طما يوم الاربعاء . وسوق صدفا يوم الأحد . فى تلك الأسواق تباع وتشترى المحاصيل والمواشى والخضراوات وفيها أقمشة سوداء للمتزوجات الأرامل ، وأقمشة مزوقة للزوجات غير الأرامل والبنات وفيها عقود من خرز ومناديل ملونة وصابون معطر " بمستكة " ولبان " دكر " وفيها ما تحتاجه

النساء من أحذية " كندرة " سوداء من جلد الماعز كالقوارب الصغيرة ، وقطع من النسيج الثقيل تحمله المرأة على رأسها كخيمة تحتجب تحتها إذا ما اضطرت إلى الخروج إلى الطريق ويسمونها " الشقة " ، أشد سواداً من شقتها التي اشتريت لها منذ ثلاثة أعوام . وفيها وسطاء من أهل البندر بين البائعين والمشترين يسمونهم " النخاسون " من بقايا ذكريات تاريخ قديم كانوا فيها يبيعون ويشترون الجواري والغلمان . وفيها أشياء أخرى تشبع أشواق المرأة ، فلا تحرص ربة البيت كثيراً على قوت العيال بعض أيام الأسواق فيسمحن لأزواجهن متصنعات التضرر بأن يغرفوا من مال الأسرة ما يزعمون أن بيعه لازم لشراء ما طلبن بالاضافة الى ما يطلبه أبو الحسن . بعد العودة من السوق يدور فيما بين الزوجين حساب امين ينتهي بانتقال ما فاض من نقود الى يد ربة البيت . لا يحمل الرجال نقوداً في القرية . تقول المرأة خشية أن تضيع .

أما اليوم الذي يسمى سوق القرية فهو السبت . لا تباع فيه بضاعة ولا تستبدل ولا تشترى ومع ذلك فهو يوم عظيم . إذ يوم السوق هو يوم اللحم والمرق والفطير. فيه يبتهج الأطفال ويستعجلون مغرب الشمس حيث يأكلون وجبة الأسبوع من اللحم والمرق والفطير. اللحم قسمة ونصيب. ما أن ينتصف يوم السوق حتى تكون كل جماعة من أهل القرية قد اشتركت فى شراء ذبيح جدى من الماعز. يفحصه كل شريك حيا ليؤكد للآخرين أنه خبيرفى لحم الجديان، ثم يذبحوه . يأخذ من يجزره جلده أجرا فهو الجزاء لمن يقطع ما تبقى أكواما أثمانها متساوية يضم كل كوم قطعة من كل عضو ذي اسم من أعضاء الذبيحة. فلايحرم شارمما قد يشتهيه من لحم أو عظم أو كرشه أو حبل قصير من الامعاء الدقيقة . ويجنب الجزار كوما من اللحم الخالص. ذاك تقليد، حتى إذا ما حضر"العمدة" سلم ثم وقف فيقول الجزار ما رأيك يا عمدة فى هذا اللحم ويقدم اليه اللحم الخالص. فيمتدحه ويشيد بالجزار ويدعو للشركاء بالهناء والشفاء ثم يطلب ما كان قد اشتراه ودفع ثمنه، ولا يأخذه إلا بعد أن يشترك فى الاقتراع مثل الآخرين، ولكنه قبل أن يحمل نصيبه يكون الجزار قد أضاف اليه ما سبق أن جنبه، والآخرون يتغافلون، نعم ذاك تقليد. فلا العمدة في حاجة الى ما أخذ، ولا الجزار في حاجة الى أن يعطى، ولا الآخرون فى حاجة الى اصطناع الغفلة عما يعرفون، لعله من ذكريات ما كان كهنة الفرعون يحصلون عليه عينا من المحاصيل.

إذا عاد الرجل إلى منزله بما حمل تكون ربة البيت قد أوقدت الفرن. ويكون الكانون قد اشتعل حطبه. وهى ، ربة البيت، تخبز وتطبخ فى الموقدين اللصيقين. على الكانون آنية من فخار عريضة القاعدة ضيقة الفوهة يسمونها "برام "، البرام ملئ حتى حافته بالبصل المخروط . البصل غارق حتى رأسه فى الدهان. ربة البيت تدق البصل بأداة ذات ثقل خشبي مربع يسمونه "مفراك "، المفراك من خشب السنط . ولا تزال ربة البيت تدق دقا هينا موزعا على قاعدة البرام، والدهان يغلي ، وهى تدق، والدهان يغلي حتى يتحول البصل الى كورة من العجين الأحمر، هنالك تلقي اللحم المغسول بما هو عالق به من ماء فى البرام وتخلطه بعجينة البصل. وبعد وقت معلوم تضيف الى الخليط قدرا من الملح والفلفل وقليلا من الماء وتتركه على الكانون وقد هدأت النار. خلال ذاك الوقت المعلوم تكون ربة البيت قد صنعت من دقيق القمح المحفوظ فى الخزانة بعصاة خشبية ملساء اسمها " نشابة " فطائر رقاقا مستديرة ما أن تقذف بها فى جوف الفرن حتى تخرجها وتسحبها كما تسحب البتاو بقضيب من الحديد ذي نهاية مستعرضة منثنية

يسمونه " المحساس "، فتكون بذلك قد أعدت أشهى الوجبات وأغلاها . لحم ومرق وفطير، تؤكل في العشاء بعد العشاء ككل الوجبات الأساسية فى كل يوم .

يتعشى الرجل مع أفراد أسرته فى المقعد إلا إمرأته . الزوجات لا يأكلن مع الازواج فى القرية أمام "الأولاد". لا يمنعن ولكن يمتنعن، إنها تحمل اليهم ما يأكلون. توزع الفطائر وتغرف المرق من البرام الى اللواحيق. وتضع اللحم كله فيما يبدو أمام الزوج فى لحوق، حتى اذا ما فرغ المرق والفطير دس الاب فى يد كل واحد من الأسرة قطعة من اللحم ويأكل منه ما يشاء، ولا يترك شيئا للواقفة تشرف على المائدة ثم يخرج الى الرهبة أو المنضرة ليقضي مع الرجال سهرة من سهرات الشبعانين الى أن يعود الى منزله فى آخر الليل فيجد الأطفال نائمين متخمين وزوجته يقظة نشطة فيأكلان معا وجبة أخرى كانت المرأة قد احتجزت لحمها ومرقها وفطيرها.

قبل صلاة الفجر تستقبل مياه الترعة الجارية أفواجا من الرجال عراة يتطهرون ثم يصلون الفجرفى الخلاء ويحمدون الله على نعمائه ويعودون فقراء الى أن يأتى يوم السوق مرة أخرى.

(١١)

تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل، الزوج، وهى بعد، التى قدمت حجر الأساس الاقتصادى لبيت الزوجية . يعد العريس غرفته ففيها أثاث من حصير ولحافين من القطن وصندوق مزوق من الخشب يسمونه "سحارة"، وثبت فى ركن الغرفة حبلا لتضع العروس عليه ملابسها حين تأتى الى بيتها. ويقدم والده الى والدها مهرا يتحول فورا الى قطع من الذهب والفضة. حلق فى الاذن، وخزام فى الأنف، وكردان فى الرقبة، وأساور فى اليدين، وحجل "خلخال " ثقيل من الفضة فى القدمين، بعد أقل من شهر يحمل الزوج ذاك "المصاغ " من الذهب والفضة الى سوق الاربعاء، فى طما، ويبيعه، ويشترى بثمنة عجله (بقرة صغيرة) فتكتمل أسس بناء البيت الجديد مثلث الاركان : الزوجة والزوج والبقرة. وتوزع أدوار البناء . فلا تلبث البقرة أن تلد، وبه يضاف اللبن والجبن والدهان، ولا يلبث الزوج أن يقدم الى زوجته عائد عمله فى الغيطان، وتتكاثر المخلوقات والموجودات فى البيت تكاثرا تحفظه وتديره المرأة ، ربة البيت، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل ولزوجها فضل العمل. فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه، وهى إذ تستيقظ قبل الفجر تحمل بلاصها ذاهبة آيبة مرات عدة بين المنزل والبئر لتملأ الأزيار وهى إذ تزحف على الأرض كانسة الأرض بسباطة جافة وهي إذ تحلب البقرة وهى إذ تزيح من تحت البهائم روثها حتى يحمل الى الغيط لتسميد الزرع ، أو لتصنع منه اقراصا للوقود تسمى "جلة" وهى إذ تهيى لزوجها افطارا قبل أن يستيقظ ليبدأ يوم عمله، وهى إذ تحمل اليه وجبة الغذاء وسط المزارع وتعود، وهي إذ تحول اللبن الى جبن ومش ودهان ، وهى إذ تخزن وتحرس كل ذى قيمة فى الخزانة والحواصل والصوامع ، لا تخدم أحداً، ولا زوجها، وانما تديرمملكتها فى بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل الزوج والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة فى القرية لا "تحب " ولا "تعشق " زوجها. تلك وأمثالها أوصاف أدنى بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين . أدنى وصف إلى حقيقتها أنها وحدة مصير .. لا بل وحدة وجود .

فهما لا يلتقيان منفردين إلا نادرا، وان تحادثا فلا يهزران ، ولايتلامسان غزلاً ، ولا يعرفان عادة القبل على الشفاه ، ولا يتعانقان إذا تقابلا بعد غياب ، ولا يفقدان فى كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولا تنادي المرأة زوجها باسمه ولا يناديها باسمها إلا إذا كانا منفردين. وإذا تجادلا فصيغة النداء تدل على مدى الاتفاق والاختلاف والتودد . ان قالت له "يا خوى" فهي متفقة ، وان نادته " يا ولد عمى " فهى تتودد ، وان قالت له " يا ولد الناس " فهي غاضبة ، وتعبير "ولد الناس " هو الذي كان يطلق على أولاد المصريات من أزواجهن المماليك حيث لا يرث الاولاد الامارة تحقيرا لأمهاتهم . الزوجة فى القرية لا تعرف هذا، ولكنها تستعمل التعبير احتجاجا غاضبا على أن زوجها لا يعاملها كأخته أو كابنة عمه بل كغريبة عنه . وهو يعلم وهى تعلم أن الكلمة الأخيرة ستكون لها حين يصل الخلاف بينهما الى حد الغضب . " فالزوجة تعرف وزوجها يعرف أنها إن غضبت فسيشقى . ستظل كل اسئلته فى بيته بدون أجوبة .

والغضب يعنى أن تغادر بيتها الى بيت أهلها، يخسر هو كل شئ ولا تخسرهى شيئا، فالنساء فى القرية يرثن يورثن. لها نصيبها الشرعي فيما تركه أبواها، ولكنها لا تنقله الى بيتها . يبقى بين يدى أخوتها ويقدمون اليها عائده كلما كان له عائد، حتى لا تتحرج من أن تعود إلى أهلها متى شاءت ولا يكون لزوجات أخوتها سبب للضيق بها. فالأمر فيما بينها وبين زوجها مباراة فى الصبر على الفرقة، بضعة أيام ويحس الزوج بالضياع فى منزله فهو لا يعرف كم فى الحاصل من محصول . ولا يعرف أين مفتاح الخزانة، ولا يعرف ما فيها ، ولا يعرف كيف يحمل البلاص على رأسه لينزح من البئر الماء الكافى لملء الازيار. ولا يعرف عدد البتاو وكيفية توزيعه. ولا يعرف كيف يحلب البقرة وكيف يخض اللبن وكيف يصنع الجبن فى ذاك الحصير من الأعواد الذى يسمونه "الشندة" ولا كم يوما يبقى الجبن فى "الشندة" قبل أن يقطع ويتبل بالملح، ولا كيف "يقيس " الدجاج، ولا أين يضع الدجاج بيضه، ولا كيف يرق الفطير ويخرط البصل حتى لو عرف كيف يحصل على اللحم لوجبة السوق، ولا يعرف سببا لما تدعيه البنات من ادعاء الجهل بأداء ما تؤديه الامهات الغاضبات. ولو عرف لبقي في المنزل وكف عن العمل فى الغيط وفقد محصول العام وخرب البيت. لابد أن تعود الى البيت ربته لتستمر الحياة. وحبذا لو عادت قبل يوم السوق . ويتدخل الأهل فى انهاء الخلاف وتعود الى بيتها بشروطها وكأن شيئا لم يحدث. فلا خصومة ولا قطيعة ولا هجر ولا عدوان فى منزل الزوجية الذي يضمهما بميثاق متين من الشعور بوحدة المصير الذى يهونون فى المدن من شأنه فيسمونه "حبا" .

لا يعنى هذا أن المرأة فى القرية لا تعرف الحب . بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء . كل ما فى الأمر أنها أحبت حتى الوله وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا بعينه . لا تزال منذئذ تحب وتشتهى وتحلم بعالم مركب من عناصر كثيرة، هو عالم بيتها الذى تكون فيه مالكة كل ما فيه ، تحب اليوم الذى تترك جزءا من شعر مقدم رأسها يتدلى على صدغيها علامة الزواج، وبدلا من الضفيرتين عشرون ضفيرة دقيقة تتدلى خلف رأسها مشدودة الى أسفله بما يماثلها عددا من ضفائر من خيوط الحرير الأحمر المجدولة يسمونها "رشرش ". تحب يوم الحنة . تحب الانتقال الى غرفة الزوجية تحيط بها الامهات والأخوات والقريبات من الفتيات وهن يقدمن اليها التهانى ويباركنها ويزغردن لها . ويغنين ،

تحب رائحة البخور المنبعثة من قلتين مزوقتين وطعم القرنفل في مائهما . تحب ملابسها الملونة وقد رصتها على الحبل بعد ان كانت قد قضت عمرها تجمعها قطعة قطعة فى انتظار يوم زفافها. تحب المرآة ذات الاطار المذهب المعلقة على الحائط ، تحب صورتها فى المرآة وقد غطت رأسها بشال حريري أحمر ذى خطوط ذهبية عريضة .. تحب ما فى أذنها وأنفها وحول رقبتها ورسغيها وخديها من "مصاغ " من الذهب والفضة هو مهرها. أول ما امتلكت في حياتها . وتحب قلق انتظار دخول عريسها غرفتها ليدخل بها . ولولا الحياء لدربت حنجرتها على صرخة الدخول التى لابد أن يسمعها الجيران وجيرانهم . ويدخل العريس الغرفة فيخرج منها كل من فيها إلا العروس والداية . العريس هو الأكثر اضطرابا لا يكاد يعرف ماذا يفعل لولا أن الداية ترشده . وحين تصرخ العروس يكون قد فض بكارتها بأصبعيه السبابة والوسطى ملفوفتين بمنديل أبيض جديد قد حمل آثار دم عروسه . فيهدأ ويزايله القلق ، لا بد إذن من آثار الدماء حتى لو كان غشاء بكارة العروس مما يصفه الأطباء بأنه " هلالي " لا يدمى عند الدخول . والبركة في الداية التي تكون قد أعدت كل شئ ولم يبق للعريس إلا اللمسة الأخيرة التى تبرر صرخة الدخول المدوية قبل أن يتلاشى دوى الصرخة يكون العريس قد غادر الغرفة رافعا يده بمنديل ملطخ بالدماء وتكون الزغاريد وأصوات كثيرة مختلطة قد استقبلته خارجا من البيت الى المضيفة ليتقبل التهاني . وبعد التهاني وليمة للمدعوين، وبعد الوليمة "المولد" ينشد خلاله الشيخ أحمد الفراسي وبطانته قصائده فى مدح الرسول ويحيط به سامر يملأ الرهبة. ، والعريس قاعد وسط أنداده وأصدقائه يحتسي أكواب الشاي داكن اللون مثل لون الحنة فى كفيه والعروس تنتظر فاذا عاد اليها أخيرا مرهقا لا ينتظر وتقاوم هى كما أوصتها أمها مقاومة عنيدة، حتى لا يتوهم أحد بأن لديها " فكرة " عما سيحدث فتذهب ظنونه الى التساؤل عن مصدر تلك " الفكرة " وهل يمكن أن يكون مصدرها "خبرة"، المقاومة العنيدة تنفى الاوهام والظنون. ولكنها ترهق العريس المرهق أصلا والذى يصر على أن يكون الزواج اغتصابا كما كان في عصور البداوة البشرية، فى النهاية لابد مما ليس منه بد. أن تكف العروس عن المقاومة. ولقد تولت الطقوس وضع علامة الاستسلام ووقته، إنها "التسليمة". والتسليمة مبلغ من النقود، لا يهم عدده، يدسه الزوج على مرأى من الزوجة تحت وسادتها فتستسلم . إنها رمزفشل القوة فى اغتصاب عروسه ولوكان المغتصب زوجها. فتنقل الطقوس العروسين الى مرحلة الشراء فى تاريخ البشرية. وتتخذ من "التسليمة" ولو كانت خمسة قروش مصدرا من أعماق التاريخ لحق الزوجين في التزواج .

كثيرا ما يكون من آثار الارهاق الجسدي والعصبي والنفسى وتهيب الفشل أن يفشل الزوج فى أولى لياليه. ولما كان هذا يحدث كثيرا فلا أحد يجهل سببه. الزوج "مربوط " الربط نوع من السحر يقوم به بعض الاشرار من الفقهاء ليفرقوا بين الرجل وزوجه فى مقابل أجر يدفعه صاحب المصلحة. وصاحب المصلحة هو فلان أو فلان من شباب القرية كان يتمنى أن يتزوج العروس ولكن العريس سبقه اليها . يكتب السحر في زوايا نجمة سداسية هى نجمة داوود، حروفا متفرقة لا تعنى شيئا. ثم تكتب تحتها كلمات وجمل وأدعية وتعاويذ مأخوذة من "باب السحر " في مؤلف الامام جلال الدين السيوطي ، وتكون من آثار هذا السحر المؤكدة ان تكاد أم العروس تجن قلقا على مصير ابنتها، فتسعى الى المشايخ وتنذر لاولياء الله الصالحين وترش غرفة ابنتها بماء ذابت فيه كتابات كانت فى اناء، وتدس في أركان الغرفة احجبة كتبها أخصائيون فى فك السحر . فإن طالت الازمة يستدعون سرا ، امرأة من "طما" لم تعجز أبدا عن

فك ما هو مربوط وتتقاضى في مقابل ذلك أجرا كبيرا. تحضر فتكرم خفية. وتسر الى الأم بأن تستضيف ابنتها فى بيتها ليلة، وتترك لها أمر العريس، وتختلى بالعريس ليلة فى سحابة من البخور. ثم تعود الى بلدها وقد أعادت الى العريس ثقته برجولته وحررته من أوهام السحر بفنون من السحر تتقنها ولا يعرفها أحد إلا العرسان الذين لو أفشوا سرها عادوا مربوطين، فيصدقون ويكتمون .

ثم يتفجر كيان الزوجة كله حبا حين تشترى بثمن المهر بقرة، ويفيض الحب حتى يغرق البيت والبقرة والبهائم والمحاصيل والفرن والكانون والزير والزوج، الزوج الذى أحبته رجلا في اطارالبيت . وحين يتحدد شخص الزوج يتلقى الشخص فيض الحب الذى ادخرته للزوج بدون افتعال ولا انكار ولا تمرد على وحدة الوجود التى بدأ استدعاوها وجدانيا منذ ما قبل الزواج. فإذا ما اختبرت الأيام تلك الوحدة بالمحن تكشف المحن عن صلابة علاقة الزوجين على وجه يعجزغير أهل القرية فهمه . فالزوجة منذ الزواج مع زوجها فى انتمائه الى عائلته وانحيازها الى قبيلتها الجديدة ضد قبيلتها الأولى حتى لو بلغ الصراع بين العائلتين حد القتل والثأر، أنها تثأر من أخيها لو قتل زوجها. والواقع أن ذلك الانحياز جزء من تكوين العالم الذى تحبه الفتاة وتعشقه قبل الزواج. تزكيه المساواة في المستوى الاقتصادي وفى الجذور بين العائلات،.. فحيث لا تملك أية عائلة أرضا فسيحة تميزها عن غيرها، أو تخشى تفتيتها بالزواج من خارج العائلة، لم يعد الزواج من ابن العم حرصا على وحدة الثروة جزءا من صورة الزواج التي تنسجها الفتاة من مشاعرها وتحبها . ولم يعد الازواج حريصين على أن تحمل اليهم الزوجات ميراثهن التافه فلا يتبعها الى زوجها . وبقي عامل محرك لاتجاهات مشروع الزواج المرتقب. أن يتم بين عائلتين تنتقل الزوجة على أثره من قبيلة الى قبيلة تاركة الأولى منحازة الى الثانية فى السراء والضراء، وذلك لأن إنشاء بيت جديد خاص بالزوجة هو الركن الجوهري من أحلام مستقبلها إنه الزواج المحبوب فعلا. وهو لا يكون جديدا ان كان واحدا من البيوت المتجاورة التى يقيم فيها أولاد أعمامها. فتلك بيوت نشأت فيها ودرجت فى أحواشها وألفتها فلا تشبع بها الشوق الى بيت جديد خاص بها. وتعرف الأمهات ويعرف الآباء تلك الأشواق الى خلق جديد فيتحقق للفتاة الانتقال الى انتماء جديد الى عائلة أخرى . فتجسد انتماءها انحيازا الى عائلة زوجها تعبيرا عن حبها الذي سبق ذلك الانتماء بسنين إذا ما اختبرت المحن الطارئة صدق الانتماء الذى يدعم وحدة وجود الزوجين، أما بالنسبة الى الزوج فلا يقال عنه أن بيته قد خرب، ولا يتحدثون عن خراب البيوت إلا فى حالتين: إن ماتت الزوجة أو طلقت الزوجة. أما الموت فهو قضاء الله ولا راد لقضائه، أما الطلاق فهو نادر ندرة خراب بيت الرجل بارادته، أما تعدد الزوجات فهو أكثر ندرة فلا أحد فى القرية يطيق تعدد البيوت إلا أن تكون زوجة عقيما فتختار له من يتزوجها لتنضم إلى مملكتها. كما اختارت سارة السيدة هاجر زوجا لابراهيم . وحين تلد ولدا تبدأ اجراءات بالغة الرقة والاسى لانتقال العرش الى الزوجة الجديدة ولا تطرد أم الولد من البيت كما طردت سارة هاجر أم اسماعيل، بل تصطنع دور أمها حتى تصبح هى أما فتكتفى بدور الأخت .

(١٢)

فى يوم من الأيام تسر الأم إلى ابنتها بأن فلانة امرأة فلان من عائلة كذا ستأتي لتخطبها لولدها فلان. و هكذا تبدأ طقوس الزواج فى القرية على عكس ما يعتقد غيرأهل القرى، بعرض

زوج المستقبل اسما ونسبا وعائلة على الفتاة أولا . فإن سكتت فقد رضيت وتستمر الطقوس، وأن عبرت عن رفضها بصيغ متمردة مثل " وماله كل شئ قسمة ونصيب " تفهم الوالدة أن فى خيال ابنتها فتى آخر تود لو تقدم لخطبتها . ويدوربينهما حديث حميم قد يستغرق أياما، موضوع ذلك الحديث الحميم بين الأم وابنتها الشابة عالم آخر من المشاعر والعواطف والرؤى الذى يعيش فيه الشباب فى كل العصور. كل ما يميزه فى القرية أنه مستور فهو أقرب فى نفس كل شاب وشابه الى أحلام اليقظة التى تضطرم فيها عواطف حارة يؤججها "دعاء الكروان " كما أسماه عميد الأدب العربى الدكتورطه حسين فى قصته الخالدة. ولكنهم لا يسمونه "حبا" ولا "هوى" ولا "غراما " ولا "عشقا ". الواقع من أمر القرية أنهم يطلقون كلمة الحب بمعنى المودة . فهى تتسع للدلالة على عاطفة الحب بين الرجل والمرأة كما تدل على علاقة المودة بين الرجال والنساء عامة وبين الرجال فيما بينهم والنساء فيما بينهن، فإذا استمعت ثم إلى نجوى البنت وأمها فقد تسمع قول البنت أنها تحب ابن فلان، أو قول الأم أن فلانة التى تريد خطبتك تؤكد أن ابنها يحبك، ولا يكون لكلمة الحب في الحالتين دلالة خاصة على ما يكون بين الذكر والانثى من تعاطف وحنين ورغبة فى الامتلاك، وقد يكون ولكن مستتر ، حياء ، بالدلالة العامة.

ذلك لأن القرية مجتمع صغير. يعرف كل فرد فيه أى فرد فيه. والأولاد والبنات يحيون فى الدروب، وفى رعى الماعز ، وذكور "المالطى" (الديوك الرومى) حياة مختلطة حتى سن العاشرة أو أكثر قليلا.. ثم أنه حين اندثرت البيوت الكبيرة اختفت المطاحن الخشبية العائلية الخاصة التى كان يديرها جرا عجل العائلة أو حمارها. وحلت محلها مطاحن آلية يتخذ لها أصحابها مواقع فيما بين القرى . لكل مجموعة من القرى مطحنة. والمطحنة خارج كل القرى، وهى لا تستقبل الراغبين طحن غلالهم الا نهارا في ذات الوقت الذي ينتشر فيه الرجال في الغيطان وتنشغل فيه ربات البيوت بشئون بيوتهن. فأصبح حمل الحب الى المطحنة والعودة به مطحونا من مهام القادرين على حمله والعودة به من الشباب، فتيانا وفتيات. وهكذأ أصبحت المطاحن ملتقى شباب وشابات يطحنون سافرين ويصحب بعضهم بعضا على الطريق الى المطحنة ومنها عائدين . فأطلقت "بوابير الطحين " عقال الفتية والفتيات من القرى المحيطة الى لقاءات مفتوحة يتولى فتيان كل قرية رعاية حياء فتياتها، وتحرص الفتيات من كل قرية على أن يكن أكثر حياء من غيرهن من القرى الأخرى، انتصارا سلوكيا لمشاعر الانتماء القبلى الكامنة فى أعماق كل فتى وكل فتاة. فأنقضت منذ انهيار البيوت الكبيرة و "طواحينها" وظهور " بوابير الطحين " عادة الزواج بين فتى وفتاة لم ير أحدهما الآخر قبل الزفاف . ولم يبق منها إلا ما هو أكثر غرابة. تحتجب الفتاة المخطوبة عن خطيبها بمجرد تمام الخطبة الى أن يتم الزواج حتى لو كانت ابنة عمه. ولكنهما يتراسلان كلاما ويتراسلان سلاما ولا يعرفان غير هذا وسيلة فهما لا يقرآن ولا يكتبان. وتحمل الأمهات والخالات والعمات والأخوات ما يبثه كل منهما سلاماً أو كلاما، ويزور الخطيب خطيبته فى بيت أبيها فتستقبله الأم أو الأخ فى " المقعد "، لا داخل البيت ولا خارجه ولاتستقبله الفتاة. يكفيها أنها تعرف أنه موجود وأنها تستطيع أن تستمع الى كلامه من وراء الباب الداخلي ، وقد تراه اذا أمنت ألا يراها. وان تصادف أثناء فترة الخطبة التي لا ينبغي لها أن تطول، أن انعقد سامر "زفة العرب "، يحفظ الخطيب موالا ويأخذ مكانه فى صف الرجال الذين يغنون متمايلين على ايقاع " طار " عوض الله فتتاح لخطيبته فرصة الانطلاق مدثرة لتجلس أمامه وتسمع مواله ، ولا يكاد يجهل أحد من أهل القرية أن تلك مخطوبة وذاك خطيبها

يعبران عن مشاعرهما باكثر الصيغ علانية وإن كانت هى مدثرة، ولا تخلو حياة القرية من وسائل أخرى للكلام والسلام، رسائل بدون لقاء، اللقاء محرم قطعا الى أن يتم الزواج. فمولعة بائعة الترمس الجائلة على البيوت تستطيع إن صادفها فلان أو فلانة أن تحمل سلاما حارا من أيهما الى الآخر. وعندما ينتهى الجسر الى "الكبرى" الركيك فوق ترعة "قاو"، يفصل "الكبرى" بين عالمين: فى شماله الموردة التى ترد اليها أسراب النساء ليملأن جرارهن ماء جاريا بدلا من مياه الابيار. يردن قبل الفجر بنحو ساعة يقضينها فى السلام والكلام والثرثرة والنميمة والاخبار والأعلام ! حتى إذا ما أطل الفجر على السماء فأشاع حول الموردة ضوءا ضبابيا تتحرك فيه أشباح من النساء تفشى بعض شخصياتهن أصواتهن ويكملها الخيال، ترى- أو قد ترى- جنوبى الكبرى شابا أو أكثر صلى الفجر فى مصلى على الترعة هناك وشرع فى العودة الى داره فى القرية- مارا- بحكم وحدة الطريق- بسرب النساء العائدات ومن بينهن خطيبته . لا تكاد تبين فلا يكاد يتبينها ولكنهما تواعدا على لقاء أعمى أصم أبكم يستغنيان فيه عن النظر والسماع والحديث بمجرد الشعور بالقرب لحظات..

(١٣)

النساء فى القرية يحتجبن فى البيوت ولكنهن خارجها سافرات إلا إذا مشين فى الدروب والطرقات وعبرن الرهبات، تلبس المرأة والفتيات أكثر من ثوب، الواحد فوق الآخر مهما كن فقيرات . وهى أثواب متسعة فيما يلى الصدر تنتهى بكرانيش تغطى القدمين لها أكمام حتى الرسغين. الثوب الأعلى لابد أن يكون أسود اللون حتى لو كشفت الكرانيش عما تحته من أثواب ملونة. وتعصب الأنثى رأسها بمنديل يضم شعرها الا خصلتين متدليتين على صدغي المتزوجة منهن.. فوق المنديل غطاء من النسيج الأسود الرقيق تتدلى أطرافه على جانبها ومن خلفها يسمونه "طرحة" . الطرحة لازمة حتى للفتيات الصغيرات. فإن أرادت المرأة أو الفتاة أن تخرج الى الطريق وضعت فوق كل هذا غطاء على رأسها تتدلى أطرافه الى كل اتجاه فتغطي جهاتها الأربع لا يترك الا ما بين طرفيه الاماميين فتحة ترى منها الطريق. تضيق تلك الفتحة وتتسع تبعا لمصادفتها الرجال. فإن صادفتهم "تزغنفت "، أى ضمت الطرفين فلا يرى وجهها أحد ولا يكاد، أنه أحد الأزياء وليس، حجابا، آية هذا أن النساء يلبسنه حتى حين يجتمعن في الأفراح والجنائز والزيارات منفردات بدون رجال . وآيته ا لثانية أنهن يلتقين بالرجال سافرات الوجه واليدين مشاركات فى الزراعة على قدر ما يطقن وهن عاملات مع الرجال يكدحن فى مناخ طلق يجمع كل الرجال العاملين وكل النساء العاملات في علانية فاضلة.

كيف إذن تظل الفتاة فى القرية سافرة إلى أن تخطب فتحتجب عن خطيبها. تحتجب بأن تلزم بيتها لا تغادره. وتحتجب بأن تحول دون أن يراها، ذلك لأن الحرمات فى القرية قيم جمعية وليست فردية . حرمة العائلة هى الجامع كل الحرمات . تشمل حرمة مساكن العائلة المتلاصقة ودروبها، الغرباء عن العائلة لا يدبون فيها إلاعابرين نهارا ولا يدبون فيها ليلا والا كانوا معتدين. وحرمة البيوت لا تسمح لغير أهل البيت بأن يدخله إلا مدعوا من أهله وبصحبة رجل منهم ولو كان أحد أفراد العائلة الأقربين، وحرمة النساء ليست من شئون النساء أو الرجال ولو كن زوجات وكانوا أزواجا. إنها حرمة العائلة، وجوهر التحريم كما كان منذ بداية التاريخ البشري هو المحافظة على صدق الانساب. لا يعرف أهل القرية شيئا عن بداية التاريخ البشري

أو تطوره ولكنهم يلتزمون قيما راسخة فى نفوسهم ويتبعونها على السجية بدون فلسفة أو سفسطة، وتفرق تلك القيم تفريقا واضحا بين عواطف الفتاة ودا أو حبا أو جفاء أو كراهية وبين عرضها، العواطف من شأنها ولو شاع ودها أو حبها أو جفاؤها أو كراهيتها مادامت لا تختلى بالطرف الآخر لتعبر له عن أي من تلك العواطف صفاء أو عداء . هذا تنصح باجتنابه حياءً أو أدبا وقد ترد عنه ردا غير جسيم. ولكنه ليس عارا على أي حال . أما ان تجاوزت ما يخصها الى ما يخص العائلة ففرطت في عرض العائلة بأن فرطت فى عرضها بما يتضمنه من احتمال أن تفرض على أهلها اضافة ليست منهم فهو عدوان منها على غيرها من عائلتها لا تملكه. ذلك تأويل احتجابها عن خطيب معترف لها بأنها تحبه وأنه يحبها، حب الزوجة المقبلة زوجها المقبل . الخلوة مع الحب لا تخلو من مخاطر نسب لم يأت أوانه. فهى حرة فى حبها ولكنها ليست حرة فى أن تفرض على أسرتها من ينتسب اليها قبل الأوان . فإن فعلت فلا نصيحة ولارد ولكنه "الاختفاء"، تختفى الفتاة فيقيد اسمها سرا فى دفتر الوفيات ولا أحد يتحدث بعد ذلك عن هذا الحدث، ولا تعاير عائلة بما جنت فتاتها مادامت قد اجتثت من شجرة العائلة. ولا يجازى شريكها شيئا.

لهذا، فإن الأيام التى قد يستغرقها الحديث الحميم بين الفتاة وأمها بعد أن عرفت من أمها أنها على وشك أن تخطب الى فلان ابن فلان من عائلة كذا فاعترضت بأية صيغة غير متمردة، تكون تحقيقا دقيقا لاكتشاف ما إذا كانت الفتاة قد تجاوزت العاطفة الى الوصل أم لا . ولا ترد أم الفتاة على رغبة أم الفتى قبل أن تتيقن من عفة ابنتها، وقد تستعين فى سبيل ذلك بالداية، فالأمهات فى أمر العفة أكثر صرامة حتى من الرجال. فهن حاملات الانساب وحافظاته فان تيقنت انحازت من حيث المبدأ الى قلب الفتاة ثم رأت بأساليب شتى ما إذا كان الفتى "قادرا" على الزواج أم غير قادر. لا تبحث عما إذا كان راغبا فى الزواج أم غير راغب. المقدرة أولا . فإن لم يكن قادرا، اقتصاديا عادة، على أن ينشئ بيتا لابنتها ردت ابنتها الى من جاء خاطبا وهو قادر حتى "لا تبور" فى انتظار غير القادرين . وهى حجة حاسمة اذ الغاية الأولى من الزواج انشاء البيت وليس التزاوج، وكل شئ قسمة ونصيب.

هنا فقط "يتشخصن "، كما يقول كتاب المشرق العربي ، الزوج الذى أحبته الفتاة منذ سنين، أي يتعين باسمه ونسبه. ويتدفق الحب المخزون للزوج والبيت بما فيه من مفردات الاحياء ومفردات الأشياء فى اتجاه معلوم . وتبدأ طقوس " تفتيش " أم العريس زوجة ابنها المقبلة.

تبلغها الأم دعوة الى الزيارة، فتزور صباحا قبل الافطار، لأنها ستفطرمع الفتاة التي تكون قد استعدت لتفتيش تعرف خطواته ودلالاته، فإذا اجتمعتا قدمت الفتاة الى حماتها المقبلة افطارا مكونا من بيضتين مسلوقتين ورغيف من خبز القمح وبعض الملح المخلوط بالفلفل. تلك هي المناسبة النادرة التى يأكل فيها أهل القرية البيض المسلوق. ولكنها طقوس. ويكون على الفتاة أن تنزع قشر البيض بينما تتأمل الحماة مخلوط الملح والفلفل لتتأكد من نسبة هذا الى ذلك ، ثم تقدم الفتاة بيدها بيضة الى أم العريس أثر بيضة. فلا تأكلها مباشرة بل تديرها فى يدها وتتأملها لتتأكد من أن عروس ابنها قد انتزعت القشر بدون أن تخدش البيضة. فإذا انتهت هذه المرحلة دعت الأم، أم الفتاة، ضيفتها لتتفقد البيت وقادتها الى حيث "الصوامع " التى أنشأتها الفتاة. تلك الفازات المستديرة العجيبة . لتتأكد أم الفتى من مهارة الفتاة فى انشاء الوعاء. وأخيرا بعد طول

حديث فارغ تأمر الأم ابنتها بأن " تفلى " خالتها. استعمال وصف " الخالة" يعنى أن المشروع فى تقدم. المفروض أن التفلية هى البحث فى شعر الخالة عن حشرات "القمل " كما تفعل القرود، فتقعى أم العريس أمام الفتاة كاشفة شعرها، داسة وجهها بين نهدى العروس، متكئة بمرفقيها على فخذيها. العروس تتصنع البحث نبشا فى شعر أم العريس عن حشرات تعرف أنها غير موجودة وتتابع اهتمام أم العريس بها، إنها تدس أنفها بين نهديها وتختبر حجمهما وصلابتهما، وتميل شمالا ويمينا لتتشمم تحت إبطيها، وتتململ وهى قاعية لتتحسس فخذيها. ولا تنتهى تفتيشا عن أسرار جسم الفتاة إلا بعد أن تكون قد عرفت جل أسراره، فإذا انتهت شكرت الفتاة على ضيافتها ثم انصرفت. وبعد ؟ لا شئ ، فلم يكن التفتيش مفاجأة، ولا تتوقف خطبة الفتيات فى القرية على صلابة نهودهن أو استدارة أفخاذهن، إنما هى طقوس ترمز من خلالها ثلاث أناث الى أنهن، الاناث، ملكات البيوت، الأم التى فكرت وقررت ودبرت أن تكون ابنتها زوجا لفلان ابن فلان من عائلة كذا، والحماة التى اشتركت فى التفكير والتقرير والتدبير مع ابنها أولا ثم مع أم الفتاة.

ثم نجاح الفتاة فى اختيار كفاءة انشاء بيت جديد بحضور الطرفين . بعد انتهاء تلك الطقوس تأخذ ربة كل بيت رأى زوجها فيما فكرت وقررت ودبرت الذى يقتنع وإلا تغضب هى فيشقى هو فيقتنع ويبدأ دور الرجال الذى ينصب أساساً على مقدار المهر وموعد الزواج .

(١٤)

المفروض أن المرأة، الفرعونة، الملكة هى الشخصية الأقوى فى القرية، هو كذلك بدون ادعاء أو حاجة الى التبرير ومن آياته " تحرر المرأة فى القرية من موكب النقص الانثوى " فلا إمرأة في القرية تتمنى أو ترضى أن تكون رجلا، ومن آياته البيانات أنه حينما يصف الرجال رجلا من بينهم وصفاً معبراً عن مدى جسارته يقولون " قلبه قلب مرة " أى لا يخاف . ومع ذلك فالمرأة شريكة للرجال فيما يسمى علميا "الحرمان الحسي " .

والأمر ببساطة أن العقل لا يتوقف عن أداء وظيفة. إدراك ما يتلقاه من مؤثرات خارجية، والاستجابة لها بما يتفق مع طبيعتها خلقا جديدا يؤثر به فى الخارج، وحين لا يتلقى مؤثرات خارجية يستدعى من الذاكرة مؤثرات قديمة مختزنة ويعيد ادراكها فيعيد الاستجابة اليها. حتى فى حالة النوم لا يكف العقل عن استرجاع تلك المؤثرات أو بعضها والاستجابة لها وما أن يستيقظ حتى يطرد من الذاكرة أغلب ما تم من نشاط فلا يبقى منه إلا ما يشبه الواقع أو ما يشوهه من أحلام أو أضغاث أحلام . المهم أن العقل كالرحى تتلقى مادة من خارجها فتجرشها أوتطحنها وتحيلها الى خلق جديد وبالتالي تتوقف سلامة التفكيروسلاسته على ما يتلقاه العقل من مادة التفكير. وكلما قلت تلك المادة، أو هزلت خف الفكر وانخفض مستوى الادراك. مادة التفكير هذه هى ما يطلق عليه المؤثرات الخارجية. إذا ما تكررت تلك المؤثرات بدون اضافة واعاد العقل ادراكها ذاتها مرة ومرات حتى لم تعد قابلة الى مزيد من تكرار الادراك تبدأ الرحى التى انقطعت عنها مادة الطحين فى طحن حجريها، فيخف حجراها بعد أن طحن كل منهما الآخر، "الحس "ما فيه من نتوء. كذلك تخف الملكات العقلية إذا ما انقطعت عنها مادة التفكير. هذا الانقطاع الذي يسمونه الحرمان الحسى.

الغريب أن أهل القرية يصفون الرحى التى مازالت تطحن حجريها الى أن خفا فلم يعودا صالحين للطحن بأنها " تلحست " أى أصبحت ملساء بعد أن فقدت الخشونة اللازمة للطحن ثم ينقلون التعبير الى الإنسان فيقولون عمن اضطرب تفكيره أنه " ملحوس ".

ليس الناس فى القرية ملاحيس، بل هم جملة مصابون بقدر من الحرمان الحسي . فعلى مدى الأيام ونصف قرن من الزمان والقرية تعيش جيلا بعد جيل منعزلة عن العالم الخارجي أو معزولة بين الجبل والنهر فى قبو من الفقر والخوف لا يخترقه جديد. على مدى ألاف الايام ونصف قرن من الزمان والناس فى القرية يتداولون مجموعة محدودة من المعرفة الفقيرة ويمارسون عادات نمطية متكررة غارقين فى بركة راكدة من الحياة المملة غير المتصلة بمجريات الحياة خارجها، ليس فى القرية ما يقال فترى الناس فيها قعودا متجاورين على المصاطب وفى المضايف لا يتحدثون ساعات طويلة يقطعها من حين إلى حين حديث مقتضب كما لو كان اختبارا لبقاء المقدرة على الكلام. والكلام، أغلب الكلام، معاد إذ لا جديد فى القرية بعد أن بلى الحديث عن هوجة عرابي . فإن جد عليها ما هو غريب انتفضت كما لو كانت تستيقظ فجأة من نوم عميق . يكفى أن يشاهد بعض الصبية سحابة من تراب قادمة نحو قريتهم على جسر الترعة فيتصايحون وهم يجرون الى أهلهم "كمبيل.. كمبيل "، حتى يتنحى الوقار وتتطلع الابصار ويجرى الصغار أمام الكبار ليروا الكمبيل (السيارة) المجلل بسحابة التراب قبل أن يتجاوز قريتهم. ويتحدثون بعض ذلك اليوم عن علامات الساعة وعن " ولد المرة ما يغلبوش غير الموت ". ثم يصمتون الى أن يشاهدوا سحابة أخرى من تراب قادمة بعد نصف عام أوبعد عام.

ومن حين الى حين تتفجر الطاقات المكبوتة معبرة عن وجودها فى معارك هستيرية بين العائلات ينتحل لها أتفه المبررات. جحش قضم بصلة مثلا. فيتنادى أصحاب الجحش وأصحاب البصل فى شجار فى الغيطان أو في الرهبة. إن يكن فى الغيطان فسلاحهم العصي من جريد النخل أو الشوم، وان يكن فى الرهبة فالنساء من فوق الاسطح قاذفات الطوب. النساء يضربن ولا يصبن. والرجال يهددون بالضرب ولا يضربون. وتتخابط العصي وقلما تصيب . كأنهم فى مباراة تحطيب. ويصيح كل فريق بالفريق الآخر بأن " روح يا ولد الكلب إجري من قدامي لحسن نكسر راصك " ينهزم من يتراجع. والى أن يتراجع المهزوم تتمثل حقيقة المعركة فى بذاءات ومعايرات وتهديدات وشتائم صاخبة يصاحبها صراخ من النساء وبكاء من الأطفال الذين "يتفرجون " وعويل على قلة من المصابين بجروح وبطوح، الى أن يحضر إمام المسجد حاملا بيرق الاشراف الموروث يرفعه فاصلا بين العائلتين وهو يدعوهم الى حفظ دماء المسلمين .

فيهدأ الجميع بعد أن تكون الطاقات المكبوتة قد استنفدت فى تشنجات هستيرية صوتية وعصبية وجسدية . فتطمر الجروح بمسحوق البن أو التراب، وينسون جميعا قصة الجحش والبصلة ويقضون بقية اليوم فى حديث عن وقائع المعركة وكيف كانوا جميعا منتصرين، ولا يشتكون، بل "يحارب " بعضهم بعضا، أى لا يتحدث بعضهم الى بعض الى حين، وهى"حرب هينة عند قوم قلما يتكلمون."

وفى كل أسبوع يمتطى نفر قليل من أهل القرية الطريق الترابي الذى تدب عليه الحمير دبا وئيدا بليدا حاملة الذاهبين الى البداري حيث مركز الادارة والشرطة والنيابة والمحكمة وسوق يوم الاثنين العجيب الذى لا يباع فيه أو يشترى إلا إذا أضيف الى البائع والشاري "وسيط " من أهل البدارى أنفسهم وكان له من الصفقة نصيب. فإذا بلغت الحمر البدارى بعد ساعتين أو أكثر تركها أصحابها فى حراسة على دلوكة صاحب "القلس " دون المدينة بقليل. والقلس حبل مشدود بين شجرتي سنط على حافة الترعة يستقبل صاحبه الوافدين ويحفظ لهم دوابهم بأن يربط كل دابة الى حبله المشدود. من يعود يسترد دابته ويدفع أجر حراستها " مليما " أحمر، وحين يعودون آخر النهار يجدون ما يحكونه غير غريب عليهم ثم يلوذون جميعا بالصمت الثقيل . وحين يخترق جدار الصمت فرح أو مولد أو عيد يتدفق مخزون الاصوات صخباً لا يكاد يسمع فيه أحد أحدا حتى ليحسبه الغريب صراخا ثم يعودون الى الصمت الكئيب. عقل القرية المتأجج ذكاء في مرحلة الطفولة يصاب بأنيميا الحرمان الحسى فى مطلع الشباب ولا يزال محروما مما يغذيه فيتحول الى عقل مريض يعالجونه بمزيد من الخرافات والهلوسات التى لا تفيد أى عقل بليد. وبينما ينطوى أغلب الرجال على أنفسهم صامتين تؤنس النساء فى المنازل أنفسهن، وهن مشغولات بتدبير أمور بيوتهن، بأغان حزينة (تعديد) مما يرثى به الموتي كما لو كن يرثين القرية الغارقة فى بركة راكدة ولكن بدون حزن . وفى كل عام يتسرب من ماعون القرية نفر ليلا ليدركوا المراكب القادمة من أقصى الصعيد متجهة الى مصر (القاهرة) أو إلى ما لا يعرف أحد، هربا صامتا من فقر الحياة الرهيب . ولا يعودون الا نادرا. إن لم يفلحوا هناك لا يعودوا بعد أن ارتكبوا عار الهروب وإن أفلحوا لا يعودوا حتى لا يوفوا لمن تركوهم بمعونات ملزمة قبليا .
تلك هى القرية الماعون راكدة المحتوى إلى حد العطن على مدى سنين الى أن عاد اليها واحد من أبنائها الشاردين.

الفصل الثالث

عودة الهارب

قال الراوي

(١)

حين يبدأ فيضان النيل يغزو" الاخوار" يملؤها قبل أن يغمر أرض الزراعة ويبلغ البيوت . والاخوار مجار قديمة للنيل فارقها فبقيت بقيعانها الرملية تنتظر وصل مياهه كل عام و تقاوم هجره بأن تحتفظ فى بطونها بمائه وتتشبث بالبقاء متصلة به شهرا أوأكثرقليلا إلى أن تنقطع الصلة فيبدأ ماؤها فى الجفاف. مع انحسار مياه الفيضان عنها يسمى الخور منها "مريسى". ويتحول المريسى إلى خازن أسماك . أهل القرية مشغولون بجمع فيض الاسماك من المصارف والترع ولا يلتمسونه فى المريسي لوفرة ماهو متاح لهم بدون جهد، وتوفيرا لجهد الصيد بالقوارب والشباك . فيصل إلى المريسي مساء كل يوم ذى ليلة مقمرة قارب به نفر من محترفي صيد الأسماك وتجارها فى طماء يحاصرون الاسماك فى الماء بشبكة طويلة يشدون أحد طرفيها إلى جذوع النخل على الشاطئ، ويجرون بقاربهم مجدفين الطرف الآخر فى خط دائري إلى أن يدرك الشاطيء محاصرين الاسماك بين الشاطئ والشباك. ثم يبدأون فى سحب شباكهم

من الماء إلى اليابسة حتى إذا ما أدركت الشباك أرض الشاطىء تكون قد جرفت فى أعبابها أسماكا كثيرة مختلفة أنواعها كبيرة حجومها، فيغرفونها إلى قاربهم ثم يجمعون إليه شباكهم وينصرفون فجرا عائدين إلى طما ليدركوا السوق الكبيرة هناك منهكين بعد ليلة طويلة من الجهد الجهيد .

فى ذات يوم لم ينصرفوا لا فجرا ولا صبحا، لقد لاحظوا منذ ما بعد عشاء ليلتهم فتى في نحو الثالثة عشرة من عمره يلبس جلبابا داكن اللون ويمسك بعصاة دقيقة ويخوض بقدميه الحافيتين طين الشاطىء محازيا قاربهم ذهابا وإيابا. ومن حين إلى حين تلتقط أذنه صوت بلحة هابطة من نخلة باسقة فيلتقطها ويمسح عليها بكم جلبابه ثم يأكلها . أخذوه على أنه أحد الغلمان المتشردين فلم يهتموا بأن يتحدثوا إليه و ما اهتم هو بأن يتحدث إليهم . حتى إذا ما جمعوا أسماكهم عند الشاطىء وهموا بأن يغرفوه إلى جوف القارب ، تقدم إليهم الفتى وطلب إليهم بحزم وعزم يثيران السخرية أن يعطوه "نصيبه " من السمك قبل أن يغرفوه إلى القارب .

- نصيب؟ نصيب إيه، وعلشان إيه والله بلاوي .

- يوه . يعنى هنحرصكم بلاش . حرصتكم طول الليل .

- حرصتنا من مين "ياد" انته .

- من الحرامية.

- أمال أنت تبقى إيه؟

- ليه ما عارفنيش، ما اسمعتوش عنى . أنا "سند عثمان " . حتى فى طما وبلاد الغرب يعرفون سند عثمان ، بطل "الشراقوة" الخرافي الذى دوخ الحكومة. فضحكوا ضحكاً عاليا، وسخروا من الفتى سخرية جارحة، قطعها أحدهم بقوله : " طيب يا سند يا ولد عثمان خد نصيبك" . وقذفه بسمكة أخطأته وأصابه رزاز مما هو عالق بها من ماء وطين .. فانطلق يجرى إلى حيث لا يعلمون وهم يضحكون .

بعد وقت كان كافيا ليحملوا أسماكهم وشباكهم ويبدأوا في العودة مجدفين ويبعدوا عن الشاطىء بنحو عشرين " قصبة " ناداهم بصوت غاضب بالوعيد أن عودوا وأعيدوا إليّ نصيبي " أحسن لكم ". فلم يعبأوا. فشرخ سكون الفجر صوت طلق ناري صاحبته صرخة يعلن بها أحد الصيادين أنه قد أصيب " فعادوا إلى الشاطىء مسرعين . واختفى الفتى لا علمون أين . تركوا واحدا منهم عند القارب يحرسه واتجهوا إلى القرية يسألون المبكرين من أهلها عن مقر العمدة وهم يشيرون إلى رفيقهم المصاب وهو يحمل ذراعاً بذراع وقد تلطخ كف ذراعه المحمول بدماء سالت إلى كمه، و يتهمون فتى لا يعرفونه ويحكون ما حدث لمن يسأل عما حدث. حتى إذا ما بلغوا منزل "شيخ مشايخ الهمامية"، إذ لم تكن القرية قليلة المسكن والسكان والأرض فالقيمة تستحق حينئذ أن يولى عليها عمدة، كان قد صاحبهم إليه آخرون فضوليون " أما الجادون فقد تبين لهم من أول نظرة. أن إصابة المجنى عليه قطع سطحي مستطيل فى كف يده اليمنى . حتى

أنهم لم يصدقوا رواية الطلق الناري إلا أن تكون القذيفة "رشة" واحدة خائبة. فانصرفوا عنه إلى شئونهم المبكرة..

حين بلغوا منزل الشيخ محمد اسماعيل ، شيخ مشايخ القرية ، كان فى المصلى كعادته كل فجر حتى الصباح ، ولكن ابنته الكبرى "شاه " كانت يقظة " فأجابت السائلين عنه أين يكون . ولقد كادت سحابة الحادث أن تتلاشى قبل أن يعود . فقد تكاثر الحاضرون وبالغوا فى اكرام الغرباء كلاماً وظهر في الضوء هوان الجرح فطمروه بمسحوق البن ، فهدأت نفوس الصيادين بينما توهج فى عقولهم خاطر حارق . الخوف من أن تطول " الاجراءات الرسمية " فيفقدوا السوق أو يتعفن السمك ، ثم أن منزل شيخ المشايخ لا يوحى بالثقة فى أنه ممن يردون الحق إلى صاحبه أو ممن يقيمون حدود الله . أنه حوش طويل محاط بسور بعضه بناء بالطوب اللبن وبعضه بالبوص المغطى بالطين تتخلله مقاطع ومنافذ ما بين بعضه وبعضه فهو متفسخ لا يكاد يقوم . تطل من داخله أعناق بضعة جمال و تسمع دبدبات المواشي فيه و تقفز من جوانبه دواجن كأنه " زريبة" بدون غطاء، فهو أزرى من كثير من البيوت المجاورة التي تطل عليه من سفح الجبل . ليس هكذا تكون بيوت العمد أو المشايخ أو حتى الخفراء في طما أو ما يتبعها من القرى غرب النيل . فما جدوى البقاء فى الدرب المترب ، أمام المنزل القمئ ، فى انتظار رجل يقضى أغلب وقته فى المصلى كما يقولون . ثم جاء الشيخ فانتبهوا. كل الحاضرين من أهل القرية، وكل من رأوهم على طريقهم اليها ، يلبسون جلابيب زرقاء. الجديد منها يحمل على الكتف الأيسر خاتما عريضا بلون بنفسجي غامق علامة حكومية على خضوع صاحبه "الضريبة الرؤوس "، والقديم قد بهتت ألوانه وكاد يزول خاتمه، إلا الشيخ محمد اسماعيل. إنه يلبس جلبابا أبيض ناصع البياض عليه عباءة قصيرة، وعلى رأسه عمامة كبيرة كعمائم المماليك ، ملتح وقور مايزال ، منذ غادر المصلى يهمهم بكلمات يعدها عدا على حبوب مسبحة سوداء بالغة الطول .. إنه فعلا شيخ مشايخ و الا لا أعفى من الجلباب الأزرق المختوم كما يعرفون من خبرتهم بذوى "الجلابيب الزرقاء" فى طما وما حولها من قرى. انه الرداء " الرسمى" لكل فلاح .

خير يا رجالة إن شاء الله ...

قصوا عليه ما حدث ولم يكتموا تفاهة الجرح، ولم ينسوا وصف المتهم وصفا دقيقا . وصفوه خلقة واتهموه خلقاً .

أطرق الشيخ وهو يمسح على لحيته ثم نهض صامتاً . دخل داره. ألقى نظرة إلى داخل صومعة فارغة فوجدها هـناك . بندقية عتيقة يصب البارود الأسود فى فوهتها ويحشر بقطعة من القماش، وتلقى فوق القماش المحشور بضعة حبوب صغيرة من مادة الرصاص (الرش) تغطى بدورها بقطعة من القطن ثم بغطاء من القماش ، ويدق على كل هذا بقضيب من الحديد كمحساس الفرن أو بالمحساس . فإذا ما أريد إطلاق حشوها صب قليل من البارود فى حوض صغير ملتصق بأسفل الماسورة تصله بها فتحة ضيقة . وسحب طارق (زناد) حديدى إلى الخلف . الطارق ذو فم كفم البرص الأسود. يقبض فكاه على شظية رقيقة من حجر الصوان . يحبسه عن أن يعود طارقا "طابة"من الصلب قائمة أمامه حائل بارز من بطن البندقية، يسحب هذا الحائل ، فيعود الزناد طارقا طابة الصلب بحافة الصوان، فيحدث احتكاكهما شرارة. تشعل

الشرارة البارود فى الحوض الصغير . وتندفع الشعلة إلى كل اتجاه بما فيه الفتحة الضيقة فتفجر البارود المحشور فى أسفل الماسورة. فيقذف بما هومحشو من قماش وقطن و" رش " إلى الأمام محدثاً دويا هائلا ودخانا مهولا. ولما كان اطلاقها . على هذا الوجه المعقد يحتاج إلى وقت بجرد تلك "البندقية بصوانه "، كما يسمونها، من فاعلية الدفاع ضد عدوان مباغت، فانها تبقى فى"الصومعة"مجهزة للاطلاق . أخرجها الشيخ محمد اسماعيل وشم فوهتها فتاكد من أنها اطلقت "حديثا" فأعادها إلى مكانها فى الصومعة وعاد هو إلى الذين ينتظرون عودته حزينا. وسأل ابنته وهو فى طريقه هل رأيت عباس. قالت لم يبت فى الدار ولكن أحسست به يعود متسللا قبيل الفجر بعد خروجك للصلاة ويضع البندقية فى الصومعة ويقفز من فوق الحائط خارجا. قال الشيخ: الله لا يرجعه. ألم يقل لك إلى أين هو ذاهب: قالت وقد غالبها البكاء: قلت له "رايح وين ياخوى قال رايح ماشي". فارتجف الشيخ قليلا ثم تمالك نفسه وقال : فى ستين داهية . رايح ماشى أى ذاهب ولن أعود .

- قال الشيخ : حقكم عندى . إنه ولدى عباس، لا أحد فى بلدنا يعمل هذه العملة الشنعاء إلا هو. إنه مجنون بسند "عصمان ". ولولا أنه لا يعرف أين يختبئ سند " عصمان " لتركنا والتحق برجاله المطاريد. على أى حال لقد خلصنا لطف الله منه. فقد ترك الدار وقال لمن فيه أنه "ماشى " . فاطلق أكثرمن واحد من الحاضرين سؤالا فزعا: ماشي ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. وأكمل الشيخ بوقار: والحمد لله . على كل الأحوال أنتم أصحاب حق فأمروا وأنا أطيع . قال فضولي من أهل القرية : المسامح كريم يابا الشيخ محمد . قال كبيرهم ناهضا : " واحنا مسامحين ونستأذن نروح نشوف أرزاقنا ومشوارنا طويل ". فقال الشيخ جادا: لا يصح بعد الغداء إن شاء الله . انكم ضيوفنا . فاعتذروا و شكروا فأمر بأن يحمل إليهم غذاؤهم حتى قاربهم فانصرفوا شاكرين يحف بهم بعض الاهلين، ليبدأ بعد انصرافهم جدل شديد بين الشيخ محمد وامرأته بخاتى بنت الشيخ عيسى . تلك البضة الشقراء ذات الشعر الذهبى والعيون الخضر " زي ولاد العز" . كانت شديدة البخل ترى أن غذاءهم الموعود دجاجة . ويقول الشيخ شديد الكرم بل خروف . فتبدأ فى البكاء إشفاقاً على البيت من اسراف المسرفين . وتضرب الأمثال من بيوت خربت من قبل اسرافا. فلايلتفت إليها الشيخ ويكف عن الجدل . فقد استنفد الجدل جدواه على مدى سنين حالت ربة البيت دون أن يبنى بيتا بديلا عن بيت البوص والطين. بيتا كبيتهم الكبير الذى دكته الغارة دكاً . وكانت بخاتى التى شهدت الغارة صبية، واختبرت متاعب التشرد تردد ردا " وايه اللى عرفنا أنه مافيش غارة تانى جاية. له. له ، له " وتبكى فيضعف الرجل ويستسلم كشأن أغلب الرجال فأوعز إلى ولده الأكبر، مرسى، بأن يحمل إلى الضيوف "جديا" ضامرا ارتضته زوجته، حلا وسطا بين الخروف والدجاجة وأن يتبع المنصرفين.

"يا شاه يا ابنتي قولى الحق ما الذي قاله لك أخوك بالزبط " . قالت شاه مضطربة : " يابوي ، ما هويابوي ، لما هم بالانصراف جريا. فأنا يا بوي تعلقت به وأمسكت كم جلبابه أشده منه.. فيابوي .. "طلع فى ايدي"، والله يابوى .. قاطعتها امها بلسان حاد : قطعت الجلابية يافالحة انشاء الله تنقطع رقبتك. قال أبوها : لا تهم الجلابية يا ابنتي أكملى .. ماذا حدث بعد ذلك ، قالت فأنا يابوى قلت يا بوى له ما تمشيش عريان ياخوى . استنى لما اجيب لك جلابية العيد . فانتظر وأحضرت له الجلابية والمركوب " شغول العيد اللي فات الجلابية البيضة " .. زين

يابنتى بس ماقالش حاجة ؟ ماهو يابوى قال يابوى أنا ماشى و" دعا علينا كلنا وعلى بلدنا كمان "، فنهرها أبوها قائلا، كفاية لت وعجن هل قالك "ماشى على وين " .. قالت ماهو يابوى.. فهم بأن يصفعها : قولى يا بت، قالت يابوى هو ماقالشى ماشى على وين. بس يابوى أنا قلت.. هيه قلتى إيه؟ يابوى أنا قلت له ياخوى أنت كنت ماشى صح روع الوعاضلة. الوعاضلة؟، أى أنا قلت له روح الوعاضلة وعطيته.. قالت امها عطيتيه؟ عطيتيه ايه يا بت تاني . قال أبوها بحنان: ماذا أعطيتيه يا ابنتي ؟ قالت شاه : أهو عطيته اللى حيلتى. اللى محوشاهم . كادت أمها تصرخ: إيه يا بت.. اللى حيلتك ياموكوسة ياخربانة . قال أبوها مبتسما شماتة فى أمها كم أعطيتيه يا شان " عشان أرجعهولك " ... ، قالت خجلة، "جنيه ذهب و ثلاثة ريالات فضة وعشرين خردة"، فقال أبوها داعيا. الله يبارك فيك يا ابنتي ، وانصرف خارجا من الدار إلى المقعد خارجه هناك أسر إلى الخفير الأثير أبوزيد بأنه خائف على مصير عباس وكلفه بأن يسأل عنه من يظن أنه قد رآه أو تحدث إليه من عائلة "أخواله "، فإن صادفه فليطمئنه بدون أن يوحى إليه بأن أباه قلق عليه حزين على فراقه أو أن غضبه قد هدأ ويتمنى له أن يعود. ويؤكد له أن "المشى عار"، وتعالى طمنى ... كل ما تسمع حاجة تعالى طمنى عليه .

(٢)

" الوعاضلة" قرية صغيرة غربى النيل . لا تزيد سكنا أو سكانا عن الهمامية، ولكنها بحكم موقعها غربى النيل حيث لا يرى الناس الجبل الغربى من فرط اتساع أرض الوادى، أرحب أرضا من الهمامية فأوفر ثراء.. لايذكر أحد كيف لجأ إليها مهاجرا اسماعيل جوده وأولاده . محمد ومصبح ومشهور والحريم والعيال أيام الغارة، فبيت اسماعيل، مثل البيوت الأخرى التى تشرد أفرادها وهاجروا فى الأرض،لايتذكرون، أو لايريدون أن يذكروا كيف انتهى بهم الهرب الى قرى ومدن نائية، الوعاضلة على بعد نحو ثلاثين كيلو مترا من الهمامية، وبعض الهاربين وصلوا شاردين متشردين إلى قرية "صول " جنوبى حلوان على بعد نحو ٤٠٠ كيلو متر من قراهم شمالا، وبعضهم واصل هروبه جنوبا إلى قنا، هذا غير الذين نفاهم الخديوى إلى البحر الأبيض في السودان، يبدو أن طرقهم جميعا إلى مهاجرهم كانت مليئة بالالام و " البهدلة" فلايريد الذين عادوا أن يذكروها لأن "الله أمر بالستر". بيت اسماعيل كانوا أسعد حظا حين وصلوا إلى "الوعاضلة" فهناك الشيخ عوض العمدة، الذى كان من خلال تردده على مديرية أسيوط، وعلى مركز صدفا، ومركز أبو تيج، قد رأى بعينيه قوة الغارة بقيادة فاضل باشا وهي قادمة إلى أسيوط فى "الغلايين البحرية"، وحشود القوة المحلية من أبو تيج وصدفا، وسمع بأذنيه أخبار غارتهم جميعا على تلك القرى المتمردة وتفاصيل ماجرى هناك من قتل وطرد وهدم ، فاستقبل المهاجرين من بيت اسماعيل متعاطفا معهم عاطفا عليهم راعيا حاجاتهم . أفرد لهم مسكنا وأكرمهم وهيأ للقادرين منهم سبل الحياة الكريمة عملا فى مشروع مد السكة الحديد إلى الصعيد، وستر أعراضهم، منذئذ ربطت بيت عوض وبيت اسماعيل أوشاج من المودة، وتوثقت بعد عودة بيت اسماعيل إلى الهمامية بزيارات متبادلة لم تنقطع، ثم تحولت إلى صداقة بين الاجيال الجديدة من أبناء الاسرتين وانتهت فيما بعد إلى مصاهرة .

وهكذا كانت شاه بنت الشيخ محمد اسماعيل تعرف أن لأخيها الهارب صداقة وثيقة مع علام بن عوض الوعضلى، الذى يكبر أخاها بسنين قليلة . تعرف هذا من أن علام كان يأتى إلى

الهمامية صيف كل عام، يقولون فى أجازة المدرسة، حاملا أقفاصا من حمام الابراج الضامر ذى الجلد الأسود الذى تشتهر الوعاضلة باستئناسه، ليقضى أسابيع ضيفا عليهم مصاحبا أخاها عباس الذى لم يذهب إلى مدرسة قط بعد أن ختم القرآن فى كتاب الشيخ أحمد معتوق وتعلم القراءة والكتابة، ولم تنس أنه قد جاء زائرا صيف العام السابق وقت جنى البلح الذى يحمل منه قففا حين يعود إلى بلده. وكان يلبس كساء غريبا، جبة وقفطانا يضمه حزام من الحرير المزوق وعلى رأسه طربوش قصير أحمرمحاط بعمامة بيضاء. جاء مودعا عباس صديقه لانه ذاهب إلى مصر، فقد أصبح منذ عام مجاورا فى الأزهر الشريف . ولقد تعانقا حين الافتراق وبكيا كثيرا كما لم يفعل قط الاصدقاء من شباب القرية ولا الأقرباء.. فأوحت إلى أخيها الهارب بأن يذهب إلى صديقه فى الوعاضلة.

ولقد أرسل الشيخ محمد إلى الوعاضلة من يلتمس أخبار ولده، فقيل له أنه لم يرد إلى القرية. فأصبح أرجح الاحتمالات أن يكون قد اهتدى إلى حيث مخبأ سند عثمان في الجبل الشرقى فالتحق به، ولكن شيخ مشايخ الهمامية لم يلبث أن عرف من المركزفي البدارى أن "معلومات المصادر والتحريات المؤكدة" تثبت أن سند عثمان وجماعته قد غادروا المنطقة بعد المطاردة العنيفة التى قام بها رجال الأمن بقيادة "البيه المأمور" وأنه قد التجأ إلى جبل الهريدى تبع مديرية جرجا . فكثر لغط الحديث عن "الفقيد" ولد الشيخ محمد . قال خفير قديم بعد أخذ ميثاق السامعين على أن يكتموا السر، أن الولد "جاته شعره فى مخه من السنة اللى فاتت طيرت عقله " فأصبح فى سكونه شاردا وفى حركته متشردا وفى كلامه متمردا. يحدث نفسه كثيرا منفردا. جايز ركبه عفريت. له. موش ممكن عفريت دى شعرة. ففى شهر رمضان المكرم، الذى يختفى فيه العفاريت، رأى والده وصحبه من الشيوخ يلعبون السيجة عصرا فى انتظار المغرب فوقف على رؤوسهم ثم خاض بقدميه فى رقعة السيجة فلخبط أعينها وبعثر كلابها وأهال ترابها على اللاعبين وقبل أن ينطق واحد منهم كان قد اختفى وبقى ليلتين لا يعلم أحد أين كان يقيم . قالوا مصادقين : والله صح لا تنشط العفاريت فى رمضان. "هلبت الواد مجنون ". عليه العوض. وربنا يصبر الشيخ محمد. لكن وين هوه دلوقيتى ياترى . الله أعلم . أغلب الظن أنه مات. وتناقلت النساء القصة فى لقاء المورده وأذعنها على أوسع نطاق سرا .

بعد نحو شهر قضاه الشيخ محمد اسماعيل مكلوما حتى هد الحزن المكتوم جسده النحيل فأمرضه، جاء رسول من الوعاضلة يمتطى جملا يتدلى على جانبيه قفصان من الجريد بكل قفص منهما عشرون زوجا من حمام الأبراج الضامر ذى الجلد الأسود . كانت تلك هدية البشرى للشيخ محمد بالنبأ السعيد، النبأ فى رسالة مكتوبة حملها البريد من القاهرة إلى الوعاضلة. حامل الرسالة لا يعرف القراءة فسلمها إلى الشيخ محمد الذى يقرأ. أخذها ودخل داره وحاول قراءتها ولكنه لم يستطع. ما أن قرأ أول جملة منها حتى تحطمت جدر الصبر والوقار وتقاليد الرجال وانفجر الشيخ بكاء بنشيج مسموع . جاءت إليه زوجه وابنته "شاه "وابنته "وشار"، وابنه "مرسى" وابنه الأصغر " اسماعيل " ونصر الجمال الغريب المقيم فى كنف الأسرة كأنه واحد منها المكلف برعى الجمال ورعايتها كأنه صاحبها، فإذا بالشيخ يهتز اهتزازا مضطربا وقد وضع كفيه على عينيه وسقطت على الأرض أمامه مسبحته الطويلة السوداء ورسالة على ورقة بيضاء.

كانت الرسالة تقول : يهدي عباس محمد اسماعيل إلى والده الشيخ محمد اسماعيل شيخ مشايخ بلدة الهمامية ألف ألف سلام . والى والدته ألف سلام، وإلى أخته شاه ألف سلام، وإلى اخته وشار ألف سلام. وإلى مرسى ألف سلام ، والى اسماعيل ألف سلام ا وإلى عمه ... (إلى آخر أفراد بيت اسماعيل) ويفيد والده بأنه بعون الله وبركات دعاء الوالدين وصل إلى مصر المحروسة بخير وسلام وقابل الشيخ علام الوعضلى المجاور بالأزهر الشريف وبلغه مايريده الوالد من أنه يدخل معه الأزهر فوافق وأعطاه النقدية التى أرسلها الوالد حفظه الله مع شاه وهى جنيه ذهب وعشرة خردة بعد أجرة السكة الحديد فاشترى لى جبة وقفطان وطربوش ودخلنى الأزهر معاه. وأنا ياوالدى العزيز من اليوم مجاور فى الأزهر الشريف مع الشيخ الكريم علام . وأصلى العشا كل يوم فى مسجد الإمام الحسين رضى الله عنه وأدعوا الله أن ترضى عنى ...

كيف حدث هذا؟ ...

(٣)

كان عجولا وهو يبحث عن مكان شاغر على أحد المقاعد الخشبية فى القطار الذى يغادر القاهرة إلى الصعيد الساعة السابعة صباحا، لقد بكر بالذهاب إلى المحطة ليكون فيما يرجو من أوائل الراكبين وانتظر حتى جاء القطار من "المخازن "، فإذا بالناس يكادون يشغلون كل كراسيه بأنفسهم وبما يحملونه من أجولة وأسبتة وقفف وحقائب. سبقوا إلى المخازن قبل أن يغادر القطار المخازن وربما قضى بعضهم ليلتهم فيه مقابل "تذاكر برانية" قرش يتقاضاه حراس المخازن ليسمحوا لمن يطيق أن يتسلل إلى القطار وقد ينام فيه. لم يتأمل طويلا بل اندفع يشق طريقه إلى داخل القطار مزاحما المندفعين، فعثر على مقعد خال فيما يلى باب الداخلين. جلس على بعضه وشغل بعضه بحقيبته ثم نظر إلى الرصيف فإذا بشيخ معمم ملتح أنيق يحمل حقيبه صغيرة متردد فى الصعود خشية الأكتاف الخشنة التى تدفعه كلما هم بالصعود، فمد إليه يده مساعدا وأدخل حقيبته من النافذة وحرضه على الصعود حتى صعد فاستقبله كأنه ولى حميم. أجلسه فى المكان الذى كانت تشغله الحقيبة فحمد الشيخ له شهامته ودعا له بأن يحفظ له شبابه ويبارك فى عافيته .

وتعارفا بالاسماء، وبانتمائهما المشترك إلى الأزهر الشريف . وعرف الشيخ من عباس بعض أمره: لقد جاء الشيخ علام الوعضلى بعد أن قضى عاما مجاورا فى الأزهر. ومازال يحدثنى عن مصر ومبانيها وشوارعها وأنوارها وأزهرها وناسها ونسائها وصحفها وكتبها وملاهيها ومقاهيها فإذا فيها " كل ما تشتهى الأنفس ". وبينما أنا أحلق فى خيال الحياة فى مصر قلت له مالم يقل أبى. إن شاء الله ستذهب للالتحاق بالأزهر العام القادم ياعباس يا ولدى، فتحدثنا جادين عن كيف سنسكن فى حجرة واحدة معا ونأكل معا وكيف سيعلمنى من أمر القاهرة الساحرة مالم أعلم، وتواعدنا على اللقاء كأنى ذاهب إليه ذاك العام. وكتب لى عنوانه فى الغورية حتى إذا ما ذهبت إلى القاهرة أذهب إليه. ولفتنى أن خطى أحسن من خطه. فانتقلت به إلى الحديث عما يتعلم المجاورون فى الأزهر فقال أنه قضى السنة الماضية فى حفظ القرآن لأن المدرسة لم تستطع أن تحفظه إياه، فلم أقل له أننى حفظته وأعدته وذهبت إلى كتاب "قاو" لصاحبه الشيخ سلمان فاختبرنى فيه أمام والدى وأثنى على وباركنى . فلما سافر علام غالب

الحلم الواقع فغلبه فكأن بى مسا من الشيطان، أصبحت أعيش القاهرة وأزهرها وأحادث ناسها وأحببت الحياة فيها بقدر ما اجتنبت الناس فى القرية وكرهت حياة أهلها، ولم يعد ينقصنى إلا أن " أمشى" من القرية إلى مصر والتحق بالازهر، لم أعرض رغبتي على والدي .. لعله ، لو كنت عرضتها عليه، كان قد حققها خشيت أن يرفض فلم أعرض . فخطر لى أن أحصل على نصيب من أسماك الصيادين ثم أبيعه إلى أن يتوافر لى ثمن تذكرة القطار، فتلبست شخصية سند عثمان وكان ماكان، وكأنما قد أراد الله أن يحقق لى ما أريد فإذا بأخت لى تدس فى يدى وأنا أهم بالهرب نقودا، فلم أخطئ بعدها الطريق. عبرت النيل فى قارب صيادين آخرين وذهبت إلى طما ومنها إلى المحطة رأسا، واشتريت تذكرة للقطار الذاهب إلى مصر ، ما أن ركبت فيه حتى نمت من فرط الارهاق وحين وصلت إلى محطة مصر كان الوقت لايزال ليلا. فأكملت نومي على رصيف المحطة بين كثير من النائمين فى انتظار القطارات. فى الصباح سألت عن الغورية فقيل لى أنها شارع أوله عند الأزهر . فسألت عن الأزهر ولازلت أسأل من يرشدنى حتى وصلت إلى العنوان مشيا على الاقدام، طرقت الباب ففتح لى الشيخ علام فلم أجد تلك الحجرة التى حلمت بأن نعيش فيها سويا . بل وجدت حجرة طويلة فى الدور الأرضي من " ربع " خلف بيت الغورى، ذات نافذة واحدة وفيها ثمانية . بعضهم مستيقظ وبعضهم نيام ، النيام " كتلاليس القيضى"، اندس كل منهم فى كيس من الدمور جمع عنقه وطواه تحت رأسه . فتساءلت كيف يتنفسون، وعلمت أن تلك حيلتهم ليحولوا بين أسراب البق وبين الوصول إلى أجسادهم . وفوق كل جسد نائم أو مستيقظ مسمار فى الحائط علقت به مشنة أو قفه . و بين المسامير حبال عليها صنوف من الملابس ، وفى ركن من الحجرة جرادل وصفائح مليئة بالمياه . وأطباق ومواقد جاز وأوعية أخرى . فكرهت المكان ورائحته الرطبة النتنة . ومع ذلك فقد طغت فرحتى بلقاء الشيخ علام ، فبعد العناق تعبيرا عن الأشواق أعطيته كل ما بقى معى من نقود. وقلت تأكيدا لما سبق أن قلت أن والدى قد أوفى بوعده وأرسلنى إليه ليدخلنى الأزهر معه. حينئذ كان باقى سكان المكان قد استيقظوا، لم يرحب بى أحد . فقد كانوا رفاق حجرة يأوون إليها ليلا ويغادرونها صباحا وكلهم مجاورون فى الأزهر فلم يكن بينهم وبين الشيخ علام مودة ليرحبوا بضيفه. كانوا غرباء كشاغلي عربة القطارالتي حملتني إليهم، تأقلمت سريعا من فرط رغبتى فى التقألم اواصطنعت لنفسي كيساً قبل أن أكسي نفسي جبة وقفطانا بحكم الضرورة الملحة . بعد مضي نحوشهرمن وصولي مصر كتبت رسالة إلى والدي ليحملها إليه الشيخ عوض ثم بدأت حياة رائعة و مريعة ومروعة معا، لا أقول أننى قد اخترتها بل أقول أننى ألقيت فيها، كما كانوا يعلموننا العوم ونحن صغاربأن يلقونا عراة فى لجة ماء الترعة. فأما أن نموت غرقا وأما أن ننجو عائمين، وكنا نعوم دائما بقوة الرغبة فى النجاة . لم أعد إلى القرية بعد ذلك، فلم أر والدى منذ فارقته إلى أن جاءني أمس " تلغراف " مرسل منذ أربعة أيام ينعيه . فهأنذا عائد إلى القرية لأودع أبى بعد أن غاب، وأنى لجد محزون .

قال الشيخ رفيق القطار: البقية فى حياتك يا بنى. وبالمناسبة هل كنت فعلا من المعجبين بذلك المجرم المطرود سند عثمان . ضحك وقال : لا أعرف كيف أجيب صادقا. وربما لو صدقتك الجواب ما صدقتنى، ولكن ألا يعجب كل المظلومين المستضعفين بشجاعة مواجهة الظالمين، حين مات كادت نفوس الشهب تنفطر حزنا على وفاة الزعيم الشاب مصطفى كامل باشا . ومن قبل أن يتوفى إلي رحمة الله كان محط إعجاب كل المصريين. لماذا كان الاعجاب

ولماذا كان الحزن مع أن الزعيم الشاب قد ترك مصر على الحال التى دخلها رازحة تحت الاحتلال الانجليزى، لأن مصطفى كامل كان رمزا لشجاعة الوطنية التى يفتقدها المصريون منذ هزيمة عرابي ويتمنى كل واحد منهم لو تحقق له فيه. كان رمزا للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال. وقد اكتملت قوته كرمز بعد مذبحة دنشواى مع أنه لم يحمل سلاحا غير الكلام . لم يقل كلاما غير الحق . كل ما ميزه وامتاز به هو الجهر بالحق فى مواجهة الجبارين .

- هذه سياسة يا ولدى فلماذا تخوض بحورها الخطرة .

- لم أخض بحورها بل ألقيت فيها .

- ومن الذى ألقاك.

- الشيخ عاصم .

- ومن هو الشيخ عاصم.

لم يكن قد مضى علىّ وقت طويل مقيدا فى سجلات الطلبة المبتدئين حين أخذني الشيخ علام لمقابلة الشيخ عاصم وأوصاني بأن أبدى له ما يستحقه من احترام . فرأيت ثمة شيخا أنيقا تجاوز سنه الاربعين تحيط به كوكبة من صغار المجاورين يتأملونه بإعجاب ويستمعون إليه مسلمين وهو لايكف عن الحديث، قدمنى إليه الشيخ علام باسمى "الثلاثي" واسم قريتي ومركزها ومديريتها والتمس لديه أن يقبلني فى حظيرة رعايته . لم يعجبنى التقديم . واستغربت الالتماس. فاقترب منى الشيخ عاصم مرحبا ووضع يده اليمنى على كتفى الأيسروسألنى عما إذا كنت أعرف من هو. فقلت متأدبا : فضيلة الشيخ عاصم . قال طالب مجاور مصححا : فضيلة الزعيم الشيخ عاصم . ربت الشيخ عاصم على كتفى ثم قال : إن شاء الله تكون من المخلصين وهذه حتى لا تنسى أننى هنا الزعيم . وصفعنى على خدى الأيسر صفعة لا هي مداعبة ولا هى غاضبة ولكن بين بين . المهم أنها اسقطت عمامتي إلى الأرض وضحكوا جميعا وتركوني أرفعها وأحاول تثبيتها على رأسى ، قال الشيخ علام : مبروك ياعم لقد قبلك الشيخ عاصم فى حزبه . فسألته وأنا أكظم غيظي وأحاول التخلص من الشعور بالاذلال : ولكن من هو أو ماهو الشيخ عاصم الذي صفعني .

قال علام : إنه طالب علم فى الأزهر الشريف منذ ثلاثين عاما كما يقولون ولا يريد أن يكف عن طلبه، لأن له دورا فى الأزهر يفوق دور العلماء. إنه زعيم الطلبة وقائدهم منذ أن كان يحضر اجتماعات الحزب الوطنى فى حلوان فى سراي لطيف باشا سليم، واستطاع بقوة شخصيته أن يحشد طلبة الأزهر لتأييد أحمد عرابي قبل أن يهزم فى التل الكبير، وكان من أقرب الناس إلى عبدالله نديم . ثم التقى بالزعيم مصطفى كامل ولكنه تجاوزه فأصبح من ندماء الخديوى عباس شخصيا . وقد نصحه رجال الحاشية الخديوية بألا يتقدم إلى امتحانات الشهادة الاهلية ليبقى طالبا وزعيما للطلبة ليخدم أهداف افندينا الوطنية، ولم يزل، ويقال أن الجراية تأتيه من السراي ذاتها.

- وفيم الصفع .

- هذا ما فعله ويفعله بكل المستجدين اشهارا لرضاه عنهم وتبعيتهم له.

سكت على مضض، وانكببت على الدراسة من عامود إلى عامود حتى تأهلت بعد ثلاث سنوات، فى يوم تأهلي كنت أعبر فناء الأزهر فوجدت الشيخ عاصم يتوضأ منفردا جالسا على عقبيه فوق حافة الحوض. ونفرا كثيرا من المجاورين ينتظرون من حوله حتى يفرغ ليستخدموا الميضأة المعدة للجميع . ولست أدري كيف حدث ما حدث . تقدمت نحوه حتى وقفت خلفه وخلعت "المركوب " وصفعته به على قفاه فانكفأ الشيخ فى حوض الماء أمامه. التفت فإذا بطائفة من الطلبة تندفع نحوي شارعة "المراكيب " الحمراء فظننت أننى هالك، لم أهرب بل تسمرت في مكاني مندهشا . فقد انهالت تلك الطائفة المندفعة بمراكيبها ضربا على رأس الشيخ عاصم المتكور فى حوض الماء وهو يستغيث ولا مغيث . من لم يضرب وقف شامتا . وتبين أن لكل طالب ثأرا عند الشيخ عاصم وأننى لم أفعل إلا ماكان كل منهم يتمنى أن يفعله، فلما فعلته فعلوه بقوة وقسوة. فلما لملم الشيخ عاصم نفسه انطلق خارجا من باب الأزهر ولم يعد بعدها أبدا ..

ولم ألبث أن وجدت نفسى محل إشارة الطلبة إلى زعيمهم خليفة الشيخ عاصم . فكأننا فى عصر المماليك لا يخلف سفاحاً منهم إلا من يقتله . ولم أكن أرى أنني أهل لما يشير به الطلبة إليّ وما يشيرون به عليّ، كنت حين أخلوا إلى نفسي أنكر كل ماحدث وأتمنى لو لم يكن قد حدث وتجتاحني حين أكون منفردا موجة خوف من أن يعود الشيخ عاصم مع أعوان له ينتقمون خفية. فخطر لى أن أتشجع بسلاح أقتنيه للدفاع عن نفسي إذا ما وقع ما أخشاه ... اشتريت خنجرا بجراب ذي حزام وشددته إلى ساقي ، وتولى علام إذاعة خبره . وعرف من لم يعرف ما لم أكن أعرفه من أحداث بطولة كنت بطلها قبل أن أحضر إلى الأزهر، ينسبها علام إليّ، وتحولت قصة الصيادين التى كنت قد حكيتها له إلى موقعة ضارية واجهت فيها منفردا خمسة رجال مسلحين وطاردتهم فى موقعة بحرية على صفحة النيل، كان علام قد اتخذ مباشرة وتلقائيا موقع التابع لي، لم يعد منذ انتصاري فى معركة "الميضأة" يسير بجواري كما كان يفعل بل يتبعني ويحمل الآخرين على أن يحاذوه. أما باقى رفاق الحجرة فقد أخلوا لى مكانا مقابل نافذتهم اليتيمة لأنام في جو أقل عطنا . وأصبحوا يقفون حين أدخل وحين أنصرف فخورين بأنهم يساكنون الشيخ عباس الصعيدى زعيم الطلبة. ويهمس أحدهم من حين إلى حين متسائلا عما إذا كان قد اتصل بي أحد من رجال الحاشية فاتمتم بكلمات مدغمة ولا أجيب .

وأحسب أنهم كانوا يرجون المشاركة فى جراية ستأتي من السراية كما كانت تفعل حاشية الشيخ عاصم . ولقد كدت أن أصدق ما يقولون عنى وأرتاح إلى سماعه لولا أنني كنت أضيق مكتوما حين أرانى مصنوعاً كذباً على غير ما أنا عليه ، فمازلت أباعد فيما بيني وبينهم حتى عدنا كما كنا أغرابا في عربة قطار، وتبخر زعم الزعامة حين تبدد الأمل فى جراية السراية فاسترد من أخلى لى مكانا مقابل النافذة مكانه ولم أعترض فكانت النهاية وكانت البداية.

كانت نهاية التصنع وبداية التطبع . كانت فترة الزعامة المزعومة قد فتحت فى وعيى نوافذ واسعة لاستقبال معان كانت من قبل مجهولة . قدسية الانتماء الوطنى . وهو ان الردع النظامي ودونيه المشاعر الفردية . فأدمنت قراءة الصحف أشارك بالقراءة فى المعارك السياسية والثقافية كما لوكنت شريكا . واكتشفت فيها دروب السياسة الضيقة المتقاطعة وضروبها . وعن

طريقها عرفت الطريق الى قهوة متاتيا فى العتبة أستمع لشخوص يتحدثون كأنهم رسل من الملائكة . وعرفت الطريق إلى " روض الفرج " حيث عالم تديره الشياطين ويزخرفه الفنانون، ولقد كنت فيما بيني وبين نفسي أعترف بتفوق رواد هذه العوالم وأعجب بهم وأتمنى لو اصبحت واحدا منهم، كاتبا أو سياسيا أو فنانا أو حتى شيطاناً . ولما كنت أؤمن بالمساواة بين الناس كما أؤمن برب الناس فقد أردت أن أساوي المتفوقين فاقتحمت كل المجالات واصطنعت الكتابة فى الصحف وجادلت رواد متاتيا . وأنشأت " رواية" قدمتها بنفسى إلى جورج أبيض. وهالنى أن أجد نفسى فى كل موقع موضع انكار واستهتار، بدون مبرر ، أى قبل أى اختبار . ان الذين لا أنكر تفوقهم ينكرون أن يكون أحد مثلهم فلا أفهم مواقفهم منى إلا أنها انكار للمساواة بى فأردهم دفعا للاهانة، فيتهموننى بالغرور بل وبالوقاحة فأضطرب اضطرابا شديدا بين صدق ما أعرفه من نفسى وكذب ما أعرفه منهم . بين فضيلة الطموح و تفضيل القناعة . ولم استطع أبدا أن أفهم كيف لا يعرف هؤلاءأن استعلاءهم ولو بالتفوق هو عين الغرور والتحدى به هو عين الوقاحة، وأفتقد فى كل هذا عين اليقين، ومازلت أتخبط بحثا عن نفسي فى متاهات القاهرة حتى كدت "أمشي"من مصر إلى حيث لا أدري .

كنت فى حاجة إلى مرشد يهديني ويأخذ بيدى في مدينة لا عائلة لي فيها وقد نشأت فى القرية على أن طلب الهداية من غير العائلة فضح لها وعار. فلم ألتمسها فى القاهرة، إلى أن كنت يوما منصرفا منفردا من الأزهر لابحث عن سكن لى بعيدا عن الغورية. فناداني من خلفى صوت يقول: ياعباس. هكذا بدون لقب شيخ . ولم يكن أحد ليناديني باسمي مجردا منذ حادث الميضأة . كان اللقب هو كل ما بقى لي من الزعامة . فالتفت فإذا بشيخ وقور أعرفه انه الشيخ أحمد الجرجاوى الذى كان يجلس إلى عامود ليلقى على من يريد دروسا فى "التفسير". وقد كنت من المترددين على عاموده " يبدأ بالآية التى سيفسرها ولا يعود إليها نصا، بل يتخذ منها مفتاحا لباب الحياة ليكشف لنا ببراعة وبساطة " وظرف " أيضا أن آيات الله حين نزلت من السماء إلى الأرض و قد أصبحت هدى للناس فى حياتهم . ثم لايزال يأخذ من الآية ما يهدى الناس في العبادات والمعاملات والحدود ويضرب من حياتنا الأمثال حتى ينهى تفسير الآية، أية آية، بما يوصى به آخر كل درس . "... وهكذا يا أبنائي ترون أن الصدق مع النفس ومع الغير هو جوهر تقوى الله، وأن الكذب على النفس أو على الغير هو جماع الرذائل. سأل اعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوصيه بما يقيه كل أثم . فقال له عليه الصلاة والسلام : لا تكذب ، قال ثم ماذا قال لاتكذب، قال ثم ماذا، قال لا تكذب . فاتقوا الله ولا تأمنوا لكذاب ... ولا تكذبوا ولو كنتم آمنين. وفقكم الله والسلام عليكم ورحمته وبركاته "، مازلت أحفظ النص لانه كان خاتمة تفسير الشيخ الجرجاوي لكل نص، كانت أقواله مضيئة و كان بعضها مبهراً وكنت من المنبهرين .

قطعت الخطوات التي " أسبقه بها عائداً مهرولاً اجلالا له . قال، لا تعجل دعنا نمشي سويا. فشعرت ساعتها ولأول مرة منذ حضرت إلى مصر بالفخار، فهذا الشيخ الجرجاوى شخصيا ينادينى باسمى مجردا كما لو كنت ولده، ويسمح لى، بل يدعوني إلى أن أرافقه في طريقه. سار وسرت بجواره متأخرا قليلا، لا هو تحدث إليّ ولا أنا تحدثت إليه. وعرج من شارع الموسكى إلى بيت القاضي فتبعته. وهناك طرق باب منزله ودخل ودعاني إلى الدخول فدخلت .

وفى حجرة مليئة بالكتب المرصوصة والكتب المنشورة طلب مني الجلوس على أريكة فجلست، ثم جلس فضيلته على أريكة مقابلة وبدأ يحدثنى حديثا عجبا .

بدأ فسألنى عما إذا كنت أحفظ القرآن فأجبت: الحمد لله. قال : فهل تذكر كم مرة قال الله تعالى في كتابه العزيز أنه سبحانه غنى عن عباده وما معناه . قلت لا أذكر إلا أنه كثير ومنه قوله تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : " إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فان الله غنى حميد" " صدق الله العظيم " ... فابتسم وقال، إذن فكل ماجاء فى القرآن من عبادات ومعاملات وحدود وأوامر ونواهي ورخص قد أنزلت لمصلحة الناس وصلاحهم. فاقرأ القرآن وافهمه وانت تنظر فى أحوال الناس وأعمل به من أجل الناس وصلاح أحوالهم، ان فعلت ذلك فكيف ترى أحوال المسلمين ؟ .. لم أجب، ولم ينتظر هو جوابا. بل تدفق حديثا كان فى بعض مواضعه يكاد يزأر منفعلاً كالاسود . لم اقاطعه ولو مستفسرا فقد كنت مبهورا بعلم مالم أكن أعلم . وفى النهاية "صرفنى" برفق معتذرا ثم قال لى إن أردت فأنني أنتظر زيارتك بعد صلاة العصر كل يوم ثلاثاء إن شاء الله. وقد واظبت على زيارته عصر كل يوم ثلاثاء والتقيت عنده بآخرين لم يقدمهم إلىّ ولم يقدمنى إليهم ولم يسأل أحدنا الآخر عن اسمه كما لو كنا متوافقين على ألا نفشى أسماءنا .

فى تلك اللقاءات المباركة حدثنا عن الخلافة فى الاستانة وفسادها وفسوقها ومروقها، وعن الطورانيين الذين يتآمرون لهدمها مستغلين ذاك الفساد والفسوق . وما تنطوى عليه جماعة الاتحاد والترقى من عداوة عنصرية المنبع للإسلام والمسلمين، وما تبيته من نوايا البطش والطغيان ضد الرعايا من غير الترك . وحدثنا عن محمد على"النذل عديم المروءة"، كما كان يصفه، الذي صعد إلى أريكة الملك على جثث ضيوفه الذين دعاهم إلى وليمة أقامها فى القلعة ليقتلهم غدرا. وقال غاضبا : ألم أقل لكم أنه نذل عديم المروءة، هل تعرفون ماحكم الشرع فى عديم المروءة . حكمه باجماع المذاهب أنه ليس عدلا فلا تسمع شهادة عديم المروءة لفساد سريرته فما بالكم برجل لا يصلح شرعا شاهدا على سرقة أتان هل يصلح لاقامة العدل بين الناس، وحدثنا عن الخديو اسماعيل وسفاهته، والخديو توفيق وخيانته . والخديو عباس وتفاهته . و عن الملك ذاته وآفته .

هنا كان يكاد يزأر، كان يقول: إن الملك إلا لله . هل يشك فى هذا الا الكافرون. أن الله ملك الناس أفليس دخول الناس فى ملك أحدهم شركا بالله . ويستطرد راويا تاريخ الفساد الذي دب فى جسد الأمة الإسلامية فمكن منها أعداء الله. لقد بدأ بتحول إمارة المؤمنين من بيعة على طاعة الله يتلقاها من يختاره المسلمون إلى ملك يعد للاجنة في الارحام على يد المارق معاوية بن أبي سفيان . يصمت قليلاً ثم يقول وهو ينبهنا إلى ما سيقول كأنه القول الفصل. مناط شرعية الحكم السبب والكيفية . وأكثرها خلافية عند أصحاب المذاهب تبعا لاختلافهم فى معايير الفضل والتفضيل، إلا أن يكون ملكا . لان الحكم فيه ارث يؤول إلى من يتولى الحكم بدون فضل فلا يتوقف على صلاح من يتولاه أو فساده فلا يكون إلا من المفسدين لاستغنائه بمولده عن قبول الرعية، ثم استغنائه بقوة الحكم عن رضائهم به وقد حكم الله عليه بالطغيان منذ أن تولى " قال الله تعالى فى كتابه العزيز: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" صدق الله العظيم . لا يمارى فى هذا إلا المنافقون من الامراء والوزراء والعلماء والكتبة، أولئك الذين قيل لهم هاتوا فتواكم بأن

أحمد عرابى كافر فأفتوا بكفره منافقين وأذاعها الآخرون.. ثم انصبت أحاديثه صبا متدفقا بعد ذلك على الإمام القدوة جمال الدين الافغاني لدعوته إلى وحدة الأمة الاسلامية دفعا لصولة الفرنجة الذين يقهرونها باتباعهم وأدواتهم من الملوك والأمراء والوزراء والفقهاء والمكاتبين . ومازال بنا حتى أصبحنا من أنصار حزب اللامركزية الذى يبقي على الخلافة بالبيعة حتى تبقى وحدة الأمة الاسلامية ويكون لكل شعب من الأمة أن يختار من يوليه الحكم ويحاسبه ويعزله ويولى غيره و...

غير أن استمرار التردد قد عرفنى بشيخ شاب اسمه

الشيخ مسعود فراج، أو أنه قد عرفنى بنفسه فأصبحنا رفيقي حضوروانصراف، فيما بيننا جرت حوارات شفوية واستعارات أوراق مكتوبة فعرفت أن الحاضرين كانوا أعضاء جمعية اسمها "جمعية الاصلاح الازهرى" يرعاها فكريا وروحياً الشيخ الجرجاوى ومديرها فعليا الشيخ مسعود. و قد بدا لى الأمر كله عقيما إلى أن دعانى الشيخ مسعود يوما إلى اللقاء فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة المغرب. التقينا، فحدثني الشيخ مسعود حديثا عجبا . بدأ بقوله إن الجمعية كانت تراقبنى منذ حادث الشيخ عاصم . وانها اعجبت بي حين تبينت عزوفى عن استغلال الوضع الذى رفعنى اليه الطلاب . ثم أنهم قرروا الالتقاء بى بعد أن بلغهم أنى تعففت عن أن تكون لى صلة بالخديو وأخيرا قرروا ضمي إلى الجمعية بعد نجاحى فى الاختبار الفكرى والفقهى والخلقى خلال فترة ترددى على منزل الشيخ الجرجاوى . لم أملك إلا أن ضحكت . قال مستنكرا: ما الذى يضحكك ، قلت كيف اجتزت لديكم اختبار الخلق، قال: لانك فيما عرفنا من مراقبتك لا تكذب، إذ الصدق أسمى درجات الخلق، قلت مستغربا ولكن جادا: وكيف عرفتم ياشيخ مسعود أننى لا أكذب. قال جادا: لانك لم تخلف موعد حضورك على مدى ثلاث سنوات . اكتفيت بهذا وسألت وما غاية كل هذا.، فانطلق يشرح لي غاية الجمعية أو غاياتها بما يمكن تلخيصه، كما قال فى آخر حديثه، إنها وضع أفكار الشيخ الجرجاوى موضع التنفيذ الفعلى . فسألت : كيف، قال: هذا تعرفه بعد صلاة العشاء .

بعد صلاة العشاء صحبنى إلى أحد أزقة السيدة زينب المظلمة، ومازلنا نلتمس الغاية صامتين حتى دخل فجأة إلى منزل عتيق وسحبنى معه . هناك صعد بي إلى الدور الأول ونقر على باب مسكن فانفتح الباب، فإذا بالمسكن حركة وأصوات ولاضوء ترى على هديه من الذى يتحرك ومن الذى يتكلم أو يهمهم . وقف وتحدث إلى من لانراهم بصوت خفيض وقدمنى إليهم بأنى المرشح الجديد للجمعية، وهم بأن يذكر اسمى . فاعترضت بتوتر حاد قائلا: لا أريد أن يعرف اسمى من يخشون أن أرى وجوههم . فضحك أحدهم، وأنار واحد آخر شمعة فضحكنا جميعا وعاد إلى الهدوء. قال واحد منهم جادا، إنك هنا لتعرف غايات جمعيتنا وتقسم على هذا المصحف والمسدس الذى بجواره على أن تشاركنا في تحقيق تلك الغايات " قال : الغاية الكبرى التى تضم كل الغايات الأخرى هى تحرير وطننا من الانجليز والخونة المصريين، قلت ومن الذى يحدد الخونة المصريين، قالوا نحن معا وستشارك أنت فى هذا التحديد. قلت، منبهرا، فليكن أقسم . فوقفوا ووقفت، وأخذ الذى كان يجيب يدي ووضعها على المصحف بعد أن وضعه فوق المسدس وقال بصوت آخر: قل اقسم بالله العظيم على السمع والطاعة .. فسحبت يدى كما لو كانت قد لدغتنى عقربة. فنهرنى قائلا : اثبت ولا تتراجع واقسم . قلت له متحديا، لا أقسم على

طاعة ما أسمع إلا إذا وافقت على ما أسمع وعرفت من أطيع. قال تطيع الله، قلت إذن اقسم على أن أطيع ما يأمر به القرآن، فأطفأ الشمعة ذلك الذى كان أوقدها . وعصبوا عيني.

وقادني اثنان منهم خلال أزقة متقاطعة إلى ان تركوني بعيداً عن المكان الذي كنت فيه ، فرفعت العصابة وتوجهت عائداً الى الغورية . ولم التفت لأعرف اين كنت . وكانت تلك التجربة ، تجربة الشعور بالخوف وتحديه معا آخر عهدى بمجلس الشيخ الجرجاوى .

قال الشيخ رفيق القطار: عليه رحمة الله كان من المخلصين .

قلت مندهشا: وهل كنت تعرفه .

قال: طبعا ولكن هذا حديث طويل، وقد اقتربت محطة المنيا وهدأت حركة القطاروحانت لحظة الوداع . مؤقتا إن شاء الله، لقد سررت بصحبتك وأتمنى لك المستقبل الذي تستحقه أرجو أن يكون أفضل مما لحق بى. فإنى عائد إلى المنيا لاودع أهلى قبل أن اشخص إلى قنا.

ـ ولماذا قنا؟

ـ لاسباب قريبة الصلة ببعض ما حدثك عنه الشيخ الجرجاوي رحمة الله عليه . انى منقول من رئيس محكمة شرعية في بنها إلى قاضٍ شرعي في قنا . وهكذا ترى انك تبدأ حياتك على طريق وعر . لا تنكص وتوكل على الله ما دمت على حق . ولست املك إلا نصيحة من شيخ في منزلة الوالد : لاتدع القرية تحبسك . عد إلى الأزهر الشريف سريعاً لتكمل طريق العلم الذي بدأته . فقد قال الإمام الشافعي رضى الله عنه : "من سكن فى الريف ضاع علمه ودينه ".

ـ أعود إن شاء الله.

وقف القطار " ونادى مناد: المنيا ... المنيا ...

فافترقنا

(٤)

ثم وقف القطار ونادى مناد : طما ... طما ...

فنزل إلى رصيف المحطة يحمل حقيبته الصغيرة. يالله ، كم تغيرت الدنيا منذ أن كان هنا آخر مرة. أرض الزرع الفسيحة التى كانت تفصل بين المحطة والمدينة أزيل زرعها وسويت ارضها واحيطت بسورمن الحديد ذى باب عريض عليه لافتة تقول : السوق العمومى . تناثرت فيه مظلات وأقيم عند مدخله داخله بناء خشبى . تطل نافذته على الشارع الذي كان يوما طريقا ترابيا بين المزارع، وعلى النافذة لافتة كتب عليها "تذاكر"، وما بين سور السوق والمحطة تراصت دكاكين معروضة فيها بضائع، يقف داخلها عارضون ويقف خارجها طالبون، فى أقصاها مقهى ذو بابين يطل أحدهماعلى المحطة ويطل الآخر على الشارع ، أمامه كراس ذوات قوائم من الخشب ومقاعد من الخوص وبها نفرغير قليل منهم من يلعبون "الكوتشينة" علنا على قارعة الطريق. وفى مواجهة السوق، على الجانب الآخر من الشارع تناثرت بيوت أومشروعات

بيوت بعضها مسكون وبعضها لم ينهض حتى يسكن . فيما يلى أول بيت قائم مكان خال فسيح. خال من البناء ولكنه عامربالحمرالمعدة للركوب تختلط بها مجموعة من الصبية وعربتان يجر كلا منهما حصان هزيل. توجه إلى حيث الحمير فتسابق إلى لقائه الصبية كل يسأل إلى أين . قال الهمامية . توقف الصبية عن الكلام وتبادلوا النظرات وسأل واحد منهم ، الهمامية؟ أين هى هذه الهمامية ، قال مبتسما شرقى البحر . فصاح غلام : يا معلم واحد عايز يروح الهمامية شرقى البحر . أجاب كهل متكئ على بردعة بدون أن ينهض: إلى السكساكة فقط ومن عندها يأخذ المركب ويعدى إلى الهمامية والأجرة ثلاثة قروش .

هو فوق الحمار حاضنا حقيبة، والحمار يدب وئيدا بخطى ضيقة ناظرا إلى الأرض مادا أذنيه إلى الأمام، ومن حين إلى آخر ينفضهما لتنفض عنه الهوام التى تركب رأسه والصبى وراءهما يمشي حافيا ساندا كفه الأيسر على مؤخرة الحمار ومن حين الى آخر يستحث الحمار على أن يوسع خطوته بأن يضرب أسفل فخذه بعصاة دقيقة ضربا موجعا ولكن الحمار لا يبالى.

بعد أن غادرا طما واتخذا من الدرب الزراعى طريقا قال الزبون : اسمك إيه ياشاطر؟ قال باقتضاب: عطية . قال : هل أنت ابن المعلم : قال : لا. أعوذ بالله . انى أعمل لديه. هو صاحب الحمير . قال : كم يعطيك أجرا. قال : الثلث . أنا قرش والحمار قرشان وهو يأخذ أجر الحمار. قال طيب. اركب يا عطية. قال لا، المعلم يضربنى . قال ضاحكا : يا عطية . لقد تركنا طما، ومازال أمامنا مشوار طويل إلى السكساكة ، فاركب ورائى ولا تخف. لم يكمل الكلمة حتى كان عطية قد قفز، لايدري كيف ، وركب خلفه . وما شأنك يا عطية . أبوي مات فرمه القطر. قطر الليل . "أصل كان نضره شوية. وعايز يعدى الشريط ". سمع صوت القطار قادما ولكن لم يعرف من أى اتجاه فاندفع ليجرى تعثرت قدمه وسقط على القضيب " ففرمه القطر" ولما كنت أكبر أخوتى الخمسة فأنا "أكد" عليهم . وكم تكسب فى اليوم . "أهو يوم قرش ويوم ثلاثة وساعات خمسة " . احتفظ لنفسى بقرش وأعطى الباقى لوالدتى . والدتى تكسب كثيرا يوم السوق، لديها رخصة دلالة . طيب يا عطية ما رأيك لو أخذت قرشين فى مقابل أن توصلنى إلى الموردة على البحر بدلا من السكساكة، حاضر . " بس هات القرشين دلوقيتى" ! فأعطاه قرشين وارتاح إلى أنه قد حل مشكلة كانت تشغله . أن يقطع نحو مائتي مترا بين السكساكة وشاطىء النهر حيث الموردة حاملاً حقيبة.

عبرا دروب قرية السكساكة إلى الجانب الشرقى فقفز الصبى عن ظهر الحماروقال : تفضل يا سيدنا الشيخ وصلنا . فنظر فرأى فضحك طويلا وقال لعطية : يا عفريت . لم تقل لي أن ... السكساكة تطل على الموردة لا يفصلهما أكثر من قصبتين . قال الصبى وهو يبتعد عن متناول يد الشيخ قابضا على القرشين فى جيب جلبابه : " وأنا مالى انت ما سألتنيش " ويتظاهر بأنه سيبكى خوفا على القرشين، فقال له مبتسما بسمة حانية . لا تخف اقترب . فطوق كتفيه الصغيرتين وربت على رأسه وقال له : انت يا عطية تستاهل أكثر من قرشين لانك ولد نبيه . خذ هذا قرش آخر. ثم سأل : ألا تذهب إلى المدرسة، قال: كنت قبل أن يموت أبى أما الآن فأنا "أجرى على رزق خواتى"، طيب يا عطية أجر عد قبل أن يحل الظلام .

وافترقا ...

(٥)

تقدم إلى الشاطىء نحو مركب راس لعله أن يجد فيه من ينقله إلى الشاطى الآخر. وجد به رجلا كهلا وفتى شابا، ما أن اقترب من المركب حتى بادره الكهل. مين؟ الشيخ عباس؟، مش أنت عباس ولد المرحوم الشيخ محمد"، قال : نعم . قال عاتبا : تأخرت ليه يا ولدى أبوك دفناه من خمسة أيام ، والناس ولاد الكلب ماسكين سيرتك وعيقولوا ده ما فيهش خير وماعيجيش جنازة أبوه، بالله ياولدى. هات ايدك . هات الشنطة، ياواد يا على، شد الهلب وافرد القلع علشان نعدى نسيبك بسرعة . نفذ كل هذا بدون أن يجد الشيخ فرصة ليقطع حديث الريس المتصل . فى الطريق إلى الشرق أزعجه قليلا أن الفتى على أحمد كان من حين إلى حين يرحب به : "أهلا وسهلا بنسيبنا، حمدا لله على السلامة يانسيبنا . البقية فى حياتك يابو النسب "، كان يرد بأي كلام . ثم تطلع إلى "الريس " متسائلا، فقال الريس. يبدو يا ولدى انك لا تعرفنا، أنا عمك الريس الحاج عليو من "الغنادير" وهذا على أحمد رفاعى ولد أحمد رفاعى من "أولاد سالم " الذى صاهروا بيتكم، بيت محمد، فقد تزوج الخفير أبو زيد عم على أختك شاه، "وجابو"ولد اسمه محمود أبو زيد . عايش فى بيت جده فى بيتكم، قال على : "عرفت عاد انك نسيبنا". هممهم الشيخ تشرفنا يا على، ثم سأل الحاج عليو كيف ضاقت المسافة بين النهر والسكساكة، قال: البحر نحر حتى اقترب من البيوت فالحكومة بطنت الشاطى بالحجر "زى ما أنت شايف " . وبنت فيه هذا المرسى العريض الداخل فى المياه لاستقبال السفن وبضائعها ومدت منه الطريق الذى جئت عليه حتى محطة طما، وقررت معدية رسمى إلى الشرق، وأنا ورفاعى دخلنا المزاد ورسى علينا وأعطونا رخصة بأن مركبنا "بس " هى التي تعدى الناس بفلوس . وكمان لما البحر نحر ناحية الغرب طرح من ناحية الشرق ولم يعد المريسى الذى يفصل الجزيرة عن البلد "مريسيا "، ضمت الأرض على بعضها " ووسعت وكله زيادة فى الخير". تساءل هل يعنى هذا أن المركب لن ترسوعند السحارة الغربية فى المريسى الشرقى . قال: لا الدنيا تغيرت . المريسى الشرقى أصبح مزارع، والمركب ترسو الآن عند أول جزيرة بيت الباشا ؟ سأل: بيت الباشا؟ قال الحاج عليو: آى "ماهو أصله لما المريسى إتردم والأرض اتصلت ببعضها والطريق مشى لغاية الجزيرة ومابقتش تغرق فى الدميرة الحكومة أعطتها لبيت الباشا السلينية، خذها البيه عبدالرحمن ولد محمود باشا، ودق فيها بابور بخارى وجاب من عندهم ناس تزرعها، سأل: لماذا من عندهم و ليه مش من أهل البلد"، قال الحاج عليو: والله ياولدى ماعارف، أهى أرزاق على أى حال . قربنا من جزيرة بيت الباشا، ستهبط من المركب هناك، وسيصحبك على أحمد حتى البلد . يشيل الشنطة . ياواد يا على . نعم بابا الحاج، تشيل شنطة نسيبك، " وبدل ماتلفوا حوالين الجزيرة خد المدق الطوالى وسط القمح اللى عيفوت جنب البابور . وإن حد قالكم أكده ولا أكده قوللهم ده ولد المرحوم الشيخ محمد اسماعيل علشان يخليكم تفوتو ... يالله يا عباس . المركب رست. جلب ".

انطلقا إلى أن بلغا "وابورا " بالغ الضخامة فى جوفه لهب، يلقمه رجلان اطنانا من الحطب فينفث من أعلاه دخانا أسود كثيفا، ويسحب من جوف الأرض ماء رائقا يدفع به فى قناة من الطين تحمله إلى داخل مزارع القمح الشاسعة، كأنها بحر ممتد إلى مالا نهاية تحرك الريح أمواجه الخضراء المتتابعة. قال خفير يحمل بندقية، لا كمثل تلك البندقية، ولكن مثل بنادق الشرطة فى القاهرة: على وين يا أستاذ؟ رد على أحمد. على البلد "ده الشيخ عباس ولد المرحوم

الشيخ محمد العمدة نسيبنا". قال: البقية فى حياتك يا أستاذ ، أى خدمة قال: متشكر، وانطلقا حتى بلغا الكوبرى الركيك مدخل القرية . فاستقبله الجالسون على امتداد الجسر ثم الدرب واقفين مصاحبين له صامتين حتى بلغ بيتهم وقد بلغ من فيه أنه قد حضر. دخل البيت مقتحما قبل أن يدخل المضيفة مسلما. قال المصاحبون : يعزى أمه أولا وانتظروه . الحوش خال من البهائم ملئ بالنساء المدثرات بالشقق السوداء . استقبلنه بصراخ حاد سمع منه أسئلة تصرخ فى وجهه : أبوك وين ياعباس . أبوك مات ياعباس. زينة الرجال مات ياعباس، تعال ياشيخ محمد شوف ولدك عباس .. وأسئلة أخرى أكثر تعقيداً وغموضاً . واندفعت إليه أخته "وشار" وامرأة أخيه مرسى وهما لا تكادان تنطقان، انحنت كل منهما تقبل ظهر يده، على رأس كل منهما وعلى صدرها بقايا كوم صغير من الطين . جراه إلى حيث أمه جالسة. نظرت إليه نظرة تأنيب حزينة . ولا دمعة . انحنى يلتمس يدها ليقبلها، قالت بحدة : كنت وين ياعباس. أبوك مات وانت كنت وين يا عباس .. الله يسامحك يا ولدى .. وانفجرت عيناها دموعا . فوثب خارجا من البيت إلى المضيفة. الرجال مرصوصون على " الدكك " . السلام عليكم . ردوا، لم يقف أحد . لم يصافح أحدا . لم يصافحه أحد . لم يتحدث إلى أحد . لم يتحدث إليه أحد . اتخذ مكانا على دكة وصمت.

بقى خمسة وثلاثين يوما صامتا، الناس فى القرية لا يتحدثون فى الجنائز لا جهرا ولا سرا. من يريد أن يتحدث ينصرف ثم يعود إلى الصمت أو لا يعود، أهل المتوفى لا يتحدثون ... لا يمدون أيديهم إلى الوافدين معزين أو المنصرفين، بل يقف نفر من الاقربين للمتوفى لكل وافد ليعرف أنهم قد رأوه مواسيا وسيواسونه حين يستقبلهم معزيين، ويقفون حين ينصرفون. ثم يجلسون صامتين، ولا يغادرون المكان إلا لضرورة تنقضى ثم يعودون . وفيه ينامون إذا جن الليل أربعين ليلة. يأتى الافطار والغداء والعشاء إليهم من بيوت العائلة لا من بيتهم على أطباق عريضة من سعف النخل الأبيض المجدول، فلا يأكل أحد منهم إلا قليلا. "القمة تسند" قلبه . وتعود الاطباق كما جاءت، لا قهوة ولا شاى فى الجنازات . لا "جوزة"ولا سجائر فى الجنازات . يمر على الناس فتى بقلة فيها ماء يتبادلها الشاربون . المعزون يقدمون جماعات جماعات من بيوت العائلات، فيتلو فقيه القرية ما يتيسر له من آى الذكر الحكيم لوافدين آخرين . جاءوا خلال القراءة الأولى، فينتظرون نهاية التلاوة التى بدأت لهم ثم ينصرفون. التلاوة قصيرة ولكن متوالية . وما يتيسر للقارئ فقيه القرية إلا ما يحفظه وهو جد قليل . يقرؤه تجويدا ثم يعيده ثم يبدأ ويعيد كأنه يحفظ المعزيين ماتيسر من القرآن . تختم القراءة كل مرة بدعوة جهيرة لقراءة الفاتحة فيقرأها الحاضرون تمتمة غير مسموعة إلى أن يقولوا آمين، فيما عدا صوت الفقيه صمت ثقيل ثقيل .

لا يسمع إلا صراخ النساء وتعديدهن في البيوت، تعديدهن رثاء منظوم ذو لحن حزين تنفطر له القلوب، ولا دمعة، ثم تنهض من بينهن نائحات إلى حلقة منهن تدرن فيها على إيقاع لطم الخدود ومقاطع التعديد تحدوهن " الندابة" تدق على طار . ولا دمعة . تنهار واحدة فيتوقف "الندب" ويستأنف الصراخ إلى حين، ولا دمعة من عيون الصارخات المعددات النادبات ولا من عيون الجالسين الصامتين .

استنفدت الأيام الجنائزية الكئيبة الحزن المكتوم فحين ذهب مع الذاهبين صباح يوم الاربعين إلى المقابر ليقرأوا الفاتحة على قبر المرحوم كانوا يحسون فى أنفسهم مشاعر

الخارجين من السجون، فلما عادوا عاد كل إلى داره وبقى هو وأخوته فى المضيفة وقلة من الأقربين. جمعوا العمائم لتغسل حتى يزول لونها المترب ويعود أبيض كما كان، فلا أحد يغسل أو يغتسل الأيام الاربعين . ثم جاء "المزين " واجتث فى عجالة خطرة ما نما على الوجوه من لحى . لا أحد "يتزين " الأيام الأربعين .

فى اليوم التالى اغتسل واستبدل بملابسه ملابس أخرى وجلس شابا نضرا فى المنضرة يحيط به من جاءوا ليرحبوا به كأنه ضيف حميم . وتحدث كثيرا إلى أخوته ورفاق عمره وقص عليهم طرائف مما لاقاه منذ "مشى"وضحك مع الضاحكين . عاد كل شئ إلى ماكان عليه كأن لم يكن ثمة مأتم . ثم يبقى الحزن سرا دفينا فى أفئدة المحزونين الصادقين لا يبين .

ثم قيل له أن أمه تريد أن تراه ...

فغادر "المنضرة" إلى البيت، هناك وجد أمه فلم يكد يعرفها وقد هزل جسمها وتغضن وجهها واحمرت عيناها ورسم الدمع الصامت على وجنتيها خطين من الحزن الجليل . لم تستطع أن تنهض فجثا أمامها وقبل يديها وشعر لأول مرة بحرارة الدموع تنبثق من عينيه . فقالت بصوت حزين رصين : لاتبك ياعباس يا ولدى . الرجال لا يبكون . وأنت الآن رجل البيت . أنت المتعلم . أخوتك لايعرفون شيئا . لا تهرب مرة أخرى يا عباس . الرجال لا يهربون. لا تهرب منا . نحن فى حاجة إليك . ابق معنا يا ولدى لتشغل مكان أبيك. لا أحد غيره يعوضنا عنه إلا أنت فلا تهرب يا عباس . الرجال لا يهربون . وحدث ما لم يحدث منها قط . طوقته بذراعيها وقبلته بشفاه مرتعشة على خده عدة مرات، ثم فصلت نفسها عنه بقوة وقالت آمرة : قم . قم ياعباس مكانك فى المنضرة مع " الرجالة " .

أعادت إليه أيام فى محيط من الود الخالص والاعجاب الصادق والفرح بوجوده الهدوء العقلى والراحة النفسية. راح الحمام الزاجل يعود إلى عشه . فاجتاحته عواطف جياشة افتقدها منذ أن "مشى" من القرية هاربا .

ليته لا يعود إلى بلد الغربة، أهلها مغتربون والوافدون إليها غرباء، ليته لا يعود إلى حياة جرداء من الابوة والأمومة والأخوة والقرابة. بلد لا أسرة فيها ولا بيت ولا عائلة ولاقرية " بلد لا تعرف الصدق حتى فى الصداقة وكل دعوة فيها ادعاء"، كما قال الشيخ الجرجاوى رحمه الله .

قال له أخواه وهما يودعانه حتى محطة طما . ماذا قلت يا عباس . قال سأرجع اليكم وأقيم معكم إن شاء الله، أريد فقط أن أكمل هذا العام الدراسي . قال له أخوه الكبير لقد أوصى أبونا أن تعود لترعانا إذا وافاه الأجل، أمنا لم تذكر لك هذه الوصية لانها تتمنى أن تعود "من نفسك "، ونحن وباقى العائلة نتمنى أن تعود وترفع رأسنا أمام العائلات الأخرى . قال كيف؟، قال : " تعمل عمدة مطرح أبوك " . قال : يا مرسى ياخوى أنا مش غريب . طول ما أمك موجودة ما فيش فايدة . ألا تذكر كيف كانت تعذب الوالد عليه رحمة الله قبل أن يستطيع اقناعها باخراج زكاة عيد الفطر . ألم يستعن بالشيخ أحمد معتوق ليقنعها بأن البخل حرام . فماذا كانت النتيجة، أبوك استقال يامرسى "عشان ايه " . ألم يكن ذلك لأنه لم يستطع أن يقنعها ببناء بيت يليق بوظيفته يستقبل فيه الحكام، تكاثرت عندكم الجمال يا مرسى فما فائدة أن يقتنى أى إنسان

سبعة جمال ومافائدة العجول التى لا تحلب ومافائدة قطيع الماعز الذى يملأ الدار . لماذا لا تبيعون الفائض وتشترون أرضا مثلا. لأن أمنا يا مرسى يسعدها الاكتناز ويشقيها الانفاق وتكره التبادل لأنه يأخذ منها حتى لو كان يعطيها بديلا عما أخذ . "يا مرسى ياخوى دا بيتكم أوحش من بيوت الغجر . قبل ماتفكروا فى العمدية أبنوا لكم بيت يامرسى" .

قال بحماس: "حاضر ياخوى . أنا دلوقيتى الكبير وحنتصرف . حنبنوه، حنبنى أحسن بيت ، بس أنت تعالى"..

وافترقوا ..

(٦)

درب سعادة خلف سراى اسماعيل باشا الصغير، يتصل أقصاه المفتوح بآخر شارع الغورية . يصبان معا فى ميدان باب الخلق . عند مصبهما تقوم "حنفية مياه عامة"، يرد إليها الأهالى لملء أوانيهم ويملأ السقاءون منها قربهم . القربة بمليمين، يحملونها إلى أهالى لا يردون .. فى مواجهة السراى تقوم الكتبخانة . يفصل بينهما شارع الخليج . يفتح باب الكتبخانة على شارع محمد على ذى البواكى على الجانبين . يبدأ من العتبة الخضراء . حيث قهوة متاتيا وينتهى إلى القلعة مقاطعا شارع الخليج عند باب الخلق، كم تمنى الشيخ أن يسكن قريبا من الكتبخانة أو يسكن فيها.

لذا حينما قرر الشيخ عباس أن يستقل بسكن بعيدا عن حجرة الغورية وسكانها اتجه فى البحث إلى شارع الغورية ذاته وعلى امتداده من الأزهر حتى باب الخلق، حتى إذا ما بلغ نهايته ولم يهتد إلى مسكن انعطف يمينا فى درب سعادة . قبل أن يصل إلى نهايته المسدودة، نادته أنثى ترقب الدرب أو تراقبه من وراء نافذة خشبية مغلقة إلا قليلا "على فين ياسى الشيخ والدرب مسدود " قال ضاحكا : "مين عارف يا ست يمكن ربنا يفتحه فى وشنا" وضحكت ضحكة رنانة وقالت : "عايز ياسى الشيخ ربنا يفتح فى وشك درب " . قهقه وهو يقترب من النافذة وقال : "موش قصدى" ... وكلمة من هنا وكلمة من هناك قالت الست أم أنيسة : طلبك عندى تفضل . غابت عن النافذة فدق هوعلى الباب بمطرقة من حديد على شكل يد قابضة على كرة . قبل أن يرفع يده عن المطرقة فتحت الباب وقالت بصوت رخو : "يه . مستعجل على إيه ياسى الشيخ، تفضل " . أم أنيسة فى نحو الخامسة والأربعين من عمرها . قصيرة مترهلة، فى وجهها آثار جدرى قديم . تحزم رأسها بمنديل أسود . دخل وهم بأن يجلس أمام حجرة "المسافرين " الأرضية فلم تمهله وقالت بجرأة جارحة : "يه . إنت جاى تؤعد ولا تشوف الأودة" . فقفز واقفا مرتبكا وسبقته هى على سلم إلى طابق ثم إلى سطح المنزل . كاد يتعثر وهو صاعد خلفها حياء من أن ينظر إليها وهى صاعدة أمامه. ثم تفضل إلى حجرة وحيدة فى ركن من السطح تفتح على باقيه وتطل نافذتها الخشبية على درب سعادة ، الحجرة خالية ونظيفة . فى الركن المقابل لها معزتان مربوطتان بحبلين طويلين مشدودين إلى سياج من البناء يحيط بالسطح . فى زاوية التقاء

السياج بالسطح وعلى امتداده تتتابع أنابيب من الطين يتوالى خروج الأرانب منها ودخولها، يجمع بين الأرانب والمعزتين كوم من البرسيم الأخضر . قالت : هوا ونور إيه رأيك ، قال : والماء، قالت : "ماتعتلش هم " . المية وأيوها حاجة تجيبها لك أختك أنيسه، بنتى، والأجرة عشر أروش فى أول كل شهر" ..

جاء صوتها من أسفل : "فيه أيه يامه "، قالت : تعالى يا أنيسة . جاءت أنيسة صاعدة على إيقاع سريع من صوت القبقاب، تلوك فى فمها لبانة . حين أطلت على السطح ورأت الفتى الشيخ تراجعت، "يه، يا عيب الشوم، دامين دا يامه "، " تعالى يابت دا أخوك عباس المجاور فى الأزهر . غريب من الصعيد، مالهوش حد وعايز أوده يسكنها ألت نديله الأودة دى بدل ما هى فاضية أهو ينوسنا وياخد باله من المعيز والأرانب . وإلا إيه ياسى عباس "، طبعا . حاضر، تأملته أنيسة وهو يتأملها وقالت : " اللى تشوفيه يامه " . وانسحبت.

هناك سكن عباس ..

يذهب إلى الأزهر كثيرا ثم دون الكثير ثم غبا حتى انقطع . ويذهب إلى منزل الشيخ الجرجاوى كل يوم ثلاثاء حتى مات، ويذهب إلى قهوة متاتيا من حين إلى حين حتى مل، ثم يذهب إلى الكتبخانة يوميا . ويطالع بنهم شديد بدون منهج حتى امتلأت رأسه بأطراف من أغلب العلوم وعلوم متناقضة الطرائف . وهام بالشعر فقرأ دواوينه، ديوانا ديوانا، وحفظ آلافا من الأبيات ولكنه لم يحفظ قصيدة واحدة متكاملة إلا ما أنشأه المتنبى فى مدح سيف الدولة فقد فتن اعجابا بسيف الدولة . ويحمل معه عصر كل يوم جريدتى الاهرام والمؤيد . ويعود إلى مسكنه يزعم لمن فيه أنه قد تناول غداءه خارج المسكن . لا يغادره إلا مصاحبا أم أنيسة وأنيسة فى جولة "حرة" أو لزيارة أولياء الله ليعودوا قبل أن يحل الظلام، يقضون الامسيات فى "الحكايات " ولعب الكتشينة و قراءة الفنجان " حين تزورهم جارتهم أم عبدالمعبود، ولقد قدمته أم أنيسة إلى زائراتها وجاراتها على أنه قريب لها من بقايا فروع عائلتها فى الصعيد، فأنيسة فى منزلة أخته الصغيرة وهو يعتبرها أخته فعلا .

عرف منها أن زوجها " أبو أنيسة "، الذى لم تنطق اسمه قط ، كان مشرفا على الخيول فى شركة سوارس التى تحتكر النقل العام بعربات مغطاة، ذات مقاعد، تجرها خيول من أول الدراسة حتى الموقف الرئيسى فى ميدان سوارس (مصطفى كامل فيما بعد)، وأن حصانا هائجا رفسه منذ ثلاثة أعوام فاخترقت حوافره بطنه وتوفى بعد أيام تاركا لها أنيسة، وأن الشركة قد "صرفت " لها مبلغا اشترت به ذاك المنزل فى درب سعادة. وأنها تستعين على الحياة بالحياكة وتأجير حجرة السطوح وبيع ما تنتجه من الارانب. وأنها " مبسوطة والحمد لله " . ولا يشغلها إلا مستقبل أنيسة.

وعرفتا عنه ما هو معروف من أول الهروب حتى درب سعادة وهما تعرفان الآن والدته وأخوته وأخواته وأقاربه بالأسماء حتى لتتحدث عنهم أم أنيسة أمام زائراتها فلايشك أحد فى أنهم أقرباؤها وقريباتها، وحين عرفتا أن له اختين إحداهما تدعى "وشار" والثانية تدعى "شاه " ضحكت أم أنيسة ضحكة مكتومة، أما "أنيسة" فماتت على روحها من الضحك "وهى تتقافز وتكركر مرددة "شاه " حتى وجم وغضب . فلما فطنت له سألته : "إيه ياسى عباس مالك،

زعلان ليه "، فقال بجدية صارمة: ما الذى يضحككم، فضحكت مرة أخرى وقالت: "أصلو مش حتلاء وا لها عريس " قال بجدية : ليه بل تزوجت فعلا، قالت متسائلة : "خروف؟ " . وضحكت مرة أخرى، فانتفض غاضبا إلى حجرته وقاطعها نحو أسبوع فعرفتا من طبعه أنه قد يكون لطيفا ولكنه مفرط الحساسية بكل ما يعتقد أنه يمس اعتزازه بذاته، وأنه ليعجب كثيرا بالاحاديث المرحة المتضمنة السخرية والتورية بشرط ألا تكون موجهة إليه وألا يكون هو موضوعها ويحسب كل هذا احتراما لنفسه. فلم تعد أنيسة بعد ذلك إلى ما لا يحب بعد أن قالت لها أمها: "أصله يا بنتى ابن عمدة. والعمد فى الصعيد مايحبوش الهزار" . فلما أراد أن " يصالحها" أضحكها حتى اغرورقت عيناها بالدموع من اسماء النساء فى القرية ، قال لها أن الاسماء مجموعات متشابهة مثل أوراق الكتشينة، بخيتة وبخة وبخاتى وبختية. وأيضا : مولعة وولعانة ولعلوعة ولعة. يقول لها بصوت أجش بلهجة الحديث فى قريته تصورى يا أنيسة رجلا يغازل زوجته فيقول لها : " أنا عنحبك موت يالعلوعة".. فتضحك فيرضى .

وعرفتا من أهل الهمامية واحدا فقط ، حمدان حسان، الرجل الطويل النحيف ذا اللحية الصفراء والعيون الزرقاء. يفد إلى منزل أم أنيسة مرتين فى العام . مرة حين ينعقد مولد السيدة زينب فى القاهرة ومرة حين ينعقد مولد السيد البدوى فى طنطا، يحضر فى مركب "قياسة" معدة للسفر الطويل، يجمع فيها الراغبين فى زيارة السيدة أو السيد. ترسو فى ساحل الغلال جنوبى مصر القديمة وتبقى لمدة أسبوع إلى أن يعود اليها الزائرون لتعود بهم إلى بلادهم فى مقابل معلوم، وفى كل مرة يأتى إلى عباس حاملا "جوالا" مليئا بالعيش الشمسى وبلحا وفريكا وجبنا قديما وطيورا قليله غير مذبوحة، و "نقودا "، لا تعرفان مقدارها وتحسبانها غيرقليلة .

وفى كل عام تشب أنيسة حتى أصبحت شابة الجسد وان بقيت طفلة الروح متوهجة الذكاء . اختبر ذكاءها واكتشفه حين توافقا على أن يعلمها القراءة والكتابة، تعلمت بأسرع مما يتذكر أنه تعلم هو. فبدأ يخشاها، فذكاؤها يلتقط أحلام يقظته أويخشى أن يلتقطه، فهى لا تكف عن مداعبته واحراجه فإذا نهرها انخرطت فى بكاء زائف بدموع حقيقية فتتدخل أمها للصلح بينها وبين أخيها فيغيض الدمع كأنها لم تبك منذ دقيقة . أما هو فلايزال حبيس تقاليد القرية الصارمة ملتزما قيمها . قيل أنها أخته، فإن لم تكن أخته فقد شاع فى درب سعادة أنها قريبته، فان لم تكن قريبته فقد أئتمنته أمها عليها، ثم هى على الأقل جارته، وكل أولئك "من المحارم " طبقا لشريعة القرية. فمرت الأيام بسلام، وفى القلوب ما فيها حتى جاءه "تلغراف " ينعى إليه والدته ويدعوه إلى الحضور، فانفجر البركان .

أعدت له أنيسة حقيبته . وأخذت أم أنيسة تواسيه وتعزيه وتقويه، فلما هم بالخروج اندفعت أنيسة إليه وتعلقت بذراعه وهى تنتحب، قالت له بصوت فيه حرقة اللهب : "بلاش تسافر يا عباس. وحياة أنيسة بلاش تسافر " . جفلت أمها وهى تسمعها تناديه لاسمه مجردا وتستحلفه بنفسها. وجلس هو من فرط الدهشة والحرج، فأطلقت أنيسة ذراعه وانطلقت صاعدة إلى السطح هاربة من الخجل ، قالت أم أنيسة بوقار جاد : "اعذرها يا ابنى الظاهر أن أنيسة بنتى متعلقة بيك . فهى تخاف ألا ترجع الينا . لكن يا ابنى كل شئ قسمة ونصيب . فمع السلامة وإن شاء الله ترجع "، لم يرد، لم يعرف كيف يرد . حمل حقيبته وانسل حزينا حزنا مضاعفا بدون أن يصافح

يد أم أنيسة الممدودة لوداعه . قبل أن يترك درب سعادة التفت إلى البيت الذى تركة فلمع وجه أنيسة يطل من نافذة حجرته . لوحت له بيدها فلوح لها بذراعه ..

وافترقا ..

(٧)

كان الوقت قد تأخر واقترب منتصف الليل حين دب، حاملا حقيبته فى الدرب الذى يلتقط أطراف أشعة الضوء المنبعثة من "فانوس " الغاز القائم عند أول شارع الغورية . ما أن اقترب من مسكنه حتى لمح شبحا قريبا من منزل أم أنيسة . صاح خفير الدرب من عند آخره : "مين اللى هناك " . قال : " أنا الشيخ عباس ". لم يكد ينهى ما قال حتى انفجرت بقوة ضلفتا "أودة المسافرين "وانصبت منها على أرض الدرب حزمة ضوء قوى تشعه "المبة نمرة ١٠ " تحملها الست أم أنيسة . قالت : "مين؟ سى عباس . حمدا لله على السلامة . تفضل يابنى" وانطلقت تفتح الباب وفى يدها المصباح، دخل هو، غلقت هى الباب . بعد السلام سألته : هل تناولت عشاءك . قال لها لا كاذبا ولا صادقا : الحمد لله . ثم أضاف: أين أنيسة ؟ قالت انها نائمة فوق فلندعها تكمل نومها و " الصباح رباح " . فحمل حقيبته وصعد إلى حجرته، ولما هم بأن ينام تلبسته شياطين الظنون .

منتصف الليل وأم أنيسة يقظة بينما أنيسة نائمة . أم أنيسة فى الدور الأرضى، بينما أنيسة فوق، ثم أن أم أنيسة " متزوقة على سنجة عشرة"، والخفير أمام الباب أو قريب منه. يحرس الدرب عند طرفه المسدود بدلا من أن يراقب مدخله، هل يمكن أن. لا . غير معقول . لكن "إن كيدهن عظيم "، طيب افترض "وأنا مالى" . لا. كيف لا أبالى وأنيسة فى الدار . هل يمكن أن أنيسة نفسها . "يادى الليلة السودة". هل كان الخفير خارجا من البيت أو كان على وشك أن يدخله. لو كان داخله فلابد أن يكون قد تعشيا معا. نعم. وإلا فلماذا بادرت إلى سؤالى عما إذا كنت تعشيت . ثم من أدرانى أنه خفير، جائز أن يكون ذلك "ملعوبا " من ملاعيب أولاد مصر ليوهمنى بأنه خفير، لكن للدرب خفير فعلا. ولو لم يكن هذا خفيرا لضبطه الخفير، بدأ ذهنه المتقد يهدأ. أمسك بالمصحف وعلى ضوء "المبة نمرة ٥ " راح يقرأ : "بسم الله الرحمن الرحيم . قل أعوذ برب الناس. ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ". وأعاد القراءة مرات ومرات حتى استيقظ فى الصباح فوجد المصحف بجواره على فراشه. فلما خرج من حجرته وجد أنيسة تحمل أرنبا وتهدهده فلما رأته قالت: صباح الخير. حمدا لله على السلامة . قال صباح الخير يا أنيسة، الله يسلمك، هل استيقظت أم أنيسة؟. أمى خرجت بدرى تسلم فستان الفرح لأم زكية لأنها ذاهبة تتزوج فى بلدهم . ظللنا طول الليل نشتغل فيه ونجهزه، إلى أن تعبت أنا ونمت، وأمى أكملت للصبح وخرجت تسلمه لأم زكية "عشان الفرح النهاردة". "عقبالك ياسى عباس " . "عقبالك أنت يا أنيسة"، "طيب عقبالنا أحنا الاتنين " .. انتفض وقال: لا. لا. يا أنيسة! مستحيل، أنا أعزك فلا أستطيع أن أغشك . انت تستاهلين أحسن الرجال . ولكن أنا لا يا أنيسة . انت لا تعرفين ما أنا فيه. لا تعرفين حالتى . أنا يا أنيسة لست أهلا لأكون محل أمل فتاة بريئة مثلك .

لم يفطن وهو يتحدث منفعلا إلى أنها كانت قد انصرفت قبل خاتمة الحديث ..

غادر المسكن قبل أن تعود أم أنيسة ولم يعد إليه إلا بعد صلاة العشاء . قضى يومه في حديقة الازبكية يجتر أفكاراً سوداء استغرقته طوال رحلة عودته بالقطار . بدأت تدور حول أنيسة التى سيقابلها بعد ساعات فسأل نفسه ماذا يريد من أنيسة . إنه يعرف أنها تريد أن تتزوجه وهو يعرف أنه لا يستطيع أن يتزوجها . أنه عاطل تحت ستار من طلب العلم وسيعود إلى قريته. فكيف يغش فتاة بريئة ويتركها تعيش وهما، وماذا لو تقدم إليها من يخطبها فرفضت من أجل ذاك الوهم .

لم تكن تلك إلا البداية ... ثم تتابعت الأفكار والاستنكار فيما يشبه الحوار .

يا أخى، لقد كدت تبلغ الواحد والعشرين من عمرك و أنت لا تعرف ماذا تريد . مسألة الأزهر عرفناها . كنت تضيق باستبداد أمك فى أبيك الذى تحبه وعجزك عن أن تردها عنه فكرهت بيتكم وتشردت فى بلدك . واخترت الأزهر لانك كنت تغير من علام الوعضلى وأنت تزعم أنك أفضل منه، على أي حال أنا لا أسألك ماذا كنت تريد من الأزهر بعد أن هربت إليه. فالأزهر جامعة طلاب العلم للعلم . ولا شأن له بمصيرهم بعد أن يتخرجوا فيه، إنه معهد تربية لا مصنع موظفين . هذه فهمناها، ثم اتيحت لك فرصة لم تسع إليها وربما لا تستأهلها هى أن تكون زعيم الطلبة، وقد كان يمكنك أن تقوم بدور أوكل إليك . ولكنك لم تعرف ماذا تفعل به أو فيه. فانسحبت متحججا بحجج واهية. لماذا لا تعترف أنك خفت من مسئوليات الدور فانسحبت، وحتى لو صح أنك لم تقبل أن تؤخذ على غير ما أنت عليه، فما الذى أنت عليه يا عباس ماذا تريد لنفسك على قدر من التحديد، والتقيت بالشيخ الجرجاوى واستمعت إليه وانبهرت بما قاله كما تقول. ومع ذلك لا تستطيع أن تنكر أنه حين أمتد هجوه من محمد على حتى ادرك عباس الثانى تمنيت لو توقف دون عباس . لقد كنت حتى ذلك الوقت ترجو أن تلتقى بالخديو كما التقى به الشيخ عاصم . ولو التقيت به ما عرفت ماذا تريد منه كما أنك لم تعرف ماذا كنت تريد من وراء ترددك على الشيخ الجرجاوي ، فلما لم يعجبك ما وراء التردد عليه هربت منه بدون حتى أن ترجع اليه وتشكو له أو تحاوره . وترددت كثيرا على مقهى متاتيا فما الذي كنت تريده من الحضور . ونسبت نفسك إلى حزب اللامركزية لمجرد أن تقول أنك منتسب إلى حزب، واخترته لأن مبادئه أكثر اتساعا من أن تجد فيها دورا محددا تريد أن تؤديه. والتهمت كتب دار الكتب قراءة، الكتب التى تقع يدك عليها مصادفة، لأنك لا تعرف ماهو العلم أو الفرع من العلم الذى تريد أن تتعلمه، حتى الشعر، ياعباس، أعجبك فيه تطريب القوافى فأنت لا تقروه كما يقرؤه الناس ولكن ترتله ترتيلا ملحنا القوافى تفعيلا تفعيلا . فما الذى تريده من وراء حفظ الشعر وترتيله، وأخيرا قدمت طلبا للالتحاق بمدرسة القضاء الشرعى، تريد أن تصبح قاضيا. أو ظننت أنك تريد . فما أن قابلك صدفة قاض شرعى منفى من بنها إلى قنا حتى جزعت من أن تنساق إلى مالا تريد. حسن . ولكن ماذا تريد؟ . ثم يا أخى، لقد مات والدك، وقد أدركت وأنت فى قريتك هناك، أو لابد أن تكون قد أدركت، أن ما كان يرسله إليك من نقود وغير نقود مع حمدان حسان مرتين فى العام كان فوق طاقته . فما الذى تريده من اخوتك الآن ..

قال يرد على نفسه : إننى منذ حضرت إلى القاهرة لم أتحرر قط من الشعور بالغربة. انى غريب عن الناس والأشياء والمعانى جميعا. ولقد حاولت. كنت أصطنع القرب من الناس والأشياء والمعانى، ولكنى أتوقف قبل أن أصل. لأن المحاولة مصطنعة وكل مصطنع زائف وأنا

لا أريد أن أزيف نفسى ولا تريد هذه القاهرة الفاجرة أن تقبلنى كما أنا . على أى حال لقد أضاعت لى أيام قضيتها فى عشى فى الهمامية أننى انتمى إلى هناك فسأنقذ نفسى وأعود إلى هناك .

لم يعد يبقى فى منزل أم أنيسة كثيرا، وأن بقى لاذ بحجرته يقرأ فيما انتقاه فاشتراه من كتب الفقه والتاريخ والشعر، فقد بدأ يعد زاده من الكتب حين يعود . لم يحدث بينه وبين أم أنيسة أو أنيسة ما يعكر صفو لقائهم إذا تلاقوا فى تلك الأمسيات التى يلعبون فيها الكتشينة أو تقرأ لهم أم عبد المعبود "الفنجان "، أصبحت علاقته بأنيسة علاقة أخوية حقا فيها ود ومجاملة وجدية أيضا. أما أم أنيسة فقد فهمت كل شئ بدون أن تسأل . بعد شهور قالت له إن حمدان قد جاء ولم يجدك ، ترك أشياء تركناها فى حجرتك . وقال إنه سيحضر غدا وألح على أن تنتظره، جاء حمدان فاستقبله فى حجرته على غير عادته . أعطاه حمدان ما أعطاه وأبلغه رسالة من أخيه . لقد "ضربوا" مائة ألف طوبة، وحرقوها فى أربعة "قمائن " لبناء البيت " وهم يريدون أن يعرفوا كيف يريد أن يكون البيت قبل أن يبنوه ..

قال لحمدان: قل لهم سأحضر لاشرف بنفسى على بنائه . متى؟. على موعد عيد الأضحى إن شاء الله ..

فلما اجتمعوا مساء كان مرحا و سعيدا سعادة من ألقى عنه وزرا كاد ينقض ظهره فقالت أم انيسة بهدوء حزين : " والنبى ياسى عباس لما تنوى تسيب الأودة أدينا خبر أبلها بشهر".

قال: سأودعكم على موعد عيد الأضحى إن شاء الله ..

وقد كان ...

(٨)

وصل مساء يوم العيد فشارك مبكرا فى طقوسه . تسبق النساء الرجال قبل شروق الشمس الى المقابر تحملن قففا من الخوص مليئة بالكعك ، تلك الاطواق الغليظة ذهبيه اللون المصنوعة من دقيق القمح واللبن والدهان. وأقفاصا من البلح الرطب، فما أن يصلن ويحطن بمقابر الغائبين حتى تحيط بهن أسراب من الأطفال يتلقون، وهم يطوفون المقابرسربا سربا، "حيمة" كعكة وبضع بلحات، رحمة للمتوفين ، فإذا أشرقت الشمس يعدن فارغات القفف والأقفاص وتكون طلائع الرجال قد وصلت إلى المقابر ذاتها فيقرأون الفاتحة ثم يتبادلون التهنئة بالعيد دعاء لا يتغيربالبقاء حيا عاما آخر "أحياك وأبقاك وتلف السنة وتلقاك "ثم ينصرفون عائدين مسرعين يذبحون كثيرا من الجديان وقليلا من الخراف ، تتحول سريعا إلى قطع من اللحم المسلوق تختلط فى المواجير الفخارية بما يملأها من "فتة" خبز القمح، وترص فى الطرقات أمام "المناضر" تتطوف بها الصبيه يتخاطفون ما فيها من لحم، ويتعابثون بما فيها من خبزبعد أن يكونوا قد شبعوا، كعكا وبلحا ولحما.

عاد اذن عباس ولد محمد اسماعيل الذى هرب من الهمامية يحمل صناديق من الكتب واشتراكا فى جريدة الأهرام، وبنى فى الهمامية بيتا أوأشرف على بنائه ، بناء على طراز بيوت الحلمية . باب صغير يؤدى إلى ردهة واسعة تصب فيها أبواب تؤدى إلى مساكن عدة، الباب

الأيمن من الخشب "اللطزان " المجلد بالواح مائلة متقاطعة برؤوس بارزة لمسامير نحاسية لامعة. ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متران. نموذج قروى لباب مسجد السلطان حسن الذى تطل عليه القلعة، ارتفاع جدران البيت ستة أمتار، غايتها أن تعوض فارق ارتفاع البيوت المجاورة المقامة على سفح الجبل فتوازيها، ويبدو أن قد كان للشيخ فيها غاية أخرى. ففى الجزء العلوى من الجدار البحرى دفن الشيخ صورة له كان قد أحضرها معه من مصر وأوراقا أخرى لا يعرف أحد ما فيها . داخل البيت أربعة مساكن يستقل كل منها ببابه وحجرة خامسة ذات باب يؤدى إلى سلم دائرى فوق "حاصل " جسيم الاتساع تستند إلى جدرانه ثلاثة مقاعد حجرية تقوم عليها الازيار . وفى الطرف الأقصى من الحجرة مالم يوجد فى أى بيت من بيوت الهمامية قبل أن يبنى الشيخ عباس بيته : مرحاض فيه قلة تملأ ماءعند الحاجة . له باب خشبى خاص يغلق من الداخل، وقد اختفت الخزانة والصوامع كما اختفت الدواب والماشية والانعام والدواجن ولم يبق بين المساكن إلا الفرن وثلاثة كوانين متجاورة. ذلك لأن الباب المقابل للمدخل الصغير إلى الردهة يؤدى إلى "حوش " مجاور للبيت . انتقلت إليه كل الأحياء من غيرالبشر . وللحوش باب خلفى يدخل منه ويخرج سكانه، أما الباب الثالث الذى يفتح على الردهة من اليسار فالاصل فيه أن يؤدى إلى "المقعد". ولكن المقعد قد استقل عن المساكن فأصبح "منضرة خاصة" لها نافذتان متقابلتان، وفيها صوان خشبى منحوت فى الحائط ملئ بالكتب التى أحضرها الشيخ . يتدلى من سقفها "كلوب " قوى الاضاءة يطل على صفين متقابلين من "الدكك " الخشبية أعدت للجالسين.

اتخذ الشيخ عباس من تلك المضيفة مقرا دائما . يتوافد إليها كثير من أهل القرية كلما رأوا الشيخ عباس قادما من البدارى، وقد كان يذهب إلى البدارى ويعود كل يومين أو ثلاثة أيام يحمل أعداد جريدة الأهرام التى كانت تصله عن طريق البريد حتى أقصى مكتب بريد، فى البدارى ، فاعتاد هو وألف الناس منه أن يجلس فى"منضرته "ويتوافد إليه

بعض رفاق ماقبل " الهرب " فى ملاعب "الطرطقة" و دارت " و العضمة" و "التحطيب" وشركاء سباق الفجر إلى جمع "الرامخ " واصطناع مزالق الطين على حافة الترعة . إنهم الآن رجال آخرون كما أنه رجل آخر غير ذلك الذى كان واحدا منهم، ولكن القرية فى نفوسهم جميعا واحدة. إنها ذلك الطور العزيز من العمر الذى قضوه معا والذى لايزال حيا فيهم، إنه يولد منذ عودته حنينا دافقا يعود بهم إليهم فيجتمعون ويتذكرون بدون أن يتذاكروا فيضحكون بدون أن يتحدثوا، انهم يوقرونه فى الأيام الأولى بعد حضوره إذا لم يكونوا منفردين . فإن ضمتهم المنضرة منفردين عادوا كما كانوا . ينادونه باسمه مجردا . وقد يضرب كل منهم على كتف الآخر بمثل العنف الذى يخفونه تحت ستار التحية وهم غلمان : "والله سلامات ". ثم يستعرضون معا ما أصاب حياتهم وحياة القرية من تغيير . ويحكى كل منهم للآخرين، وهو حاضر، ما يعرفه الآخرون منذ أن كان غائبا، يستمع إليهم بشغف ثم يدعوهم إلى رؤية العالم الساحر وما فيه مما لا يعرفون . فيقبلون الدعوة شغوفين وقد تكاثر الحاضرون، يقرأ لهم الصحف كلمة كلمة، يرتل لهم الشعربيتا بيتا، ويقص عليهم ماسطر فى كتب التاريخ عهدا عهدا، ويفتيهم في الدين على طريقة الشيخ الجرجاوى فيهدم فى رؤوسهم قمم العروش والحكومات والباشوات والبكوات حتى لا يكون لانسان فضل على إنسان إلا بالتقوى. ويقدم إليهم واحدا من الصحابة لم يسمعوا عنه من قبل ويفيض فى بيان مناقبه ومذاهبه حتى ليشعر الواحد منهم أن أبا

زر الغفاري كان يتحدث عنهم حين كان يروى الحديث . ويشاركون فيما يشربون وفيما يأكلون ويتشاورون فى أمورهم ولايزالون حتى أصبح الكل فى واحد، وكان واحد من الكل يدعى يونس عبد الله ...

غير أن هذا حديث آخر .